النبوات

شيخ الإسلام ابن تيمية

تحقيق
الشيخ ابراهيم رمضان

دار
الفكر اللبناني

Bibliotheca Alexandrina
0129277

النبوات

النبوات

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تحقيق
الشيخ ابراهيم رمضان

دار الفكر اللبناني
بيروت

دار
الفكر اللبناني

للطباعة والنشر

كورنيش المزرعة - قرطاس غلوب بلازا
هاتف: ٣١١٥٧٨ - ٨٦٢٢٩٢
ص.ب: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلكس: DAFKLB 23648 LE - بيروت، لبنان

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ١٩٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله:

فصل
المعجزة والكرامة

في معجزات الأنبيآء التي هي آياتهم وبراهينهم كما سماها الله آيات وبراهين: وللنظار طرق في التمييز بينها وبين غيرها وفي وجه دلالتها.

أما الأول فإن منهم من رأى أن كل ما يخرج عن الأمر المعتاد فإنه معجزة، وهو الخارق للعادة إذا اقترن بدعوى النبوة، وقد علموا أن الدليل مستلزم للمدلول، فيلزم أن يكون كل من خرقت له العادة نبياً.

فقالت طائفة: لا تخرق العادة إلا لنبي، وكذبوا بما يذكر من خوارق السحرة والكهان، وبكرامات الصالحين، وهذه طريقة أكثر المعتزلة وغيرهم كأبي محمد بن أبي زيد، ولكن كأن في الحكاية عنهما غلطاً، وإنما أرادوا الفرق بين الجنسين، وهؤلاء يقولون أن ما جرى لمريم وعند مولد الرسول فهو إرهاص، أي توطئة وإعلام بمجيء الرسول، فما خرقت في الحقيقة إلا لنبي، فيقال لهم: وهكذا الأولياء، إنما خرقت لهم لمتابعتهم الرسول، فكما أن ما تقدمه فهو من معجزاته، فكذلك ما تأخر عنه.

وهؤلاء يستثنون ما يكون أمام الساعة، لكن هؤلاء كذبوا بما تواتر من الخوارق لغير الأنبيآء، والمنازع لهم يقول: هي موجودة مشهودة لمن شهدها متواترة عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبيآء، فكيف يكذبون بما شهدوه، ويصدقون بما غاب عنهم، ويكذبون بما تواتر عندهم أعظم مما تواتر غيره؟

[أقوال العلماء في المعجزة والكرامة]:

وقالت طائفة: بل كل هذا حق وخرق العادة جائز مطلقاً، وكل ما خرق لنبي من العادات

يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين، بل ومن السحرة والكهان، لكن الفرق أن هذه تقترن بها دعوى النبوة وهو التحدي. وقد يقولون أنه لا يمكن أحداً أن يعارضها بخلاف تلك، وهذا قول من اتبع جهماً[1] على أصله في أفعال الرب من الجهمية وغيرهم، حيث جوزوا أن يفعل كل ممكن فلزمهم جواز خرق العادة مطلقاً يد كل أحد، واحتاجوا مع ذلك إلى الفرق بين النبي وغيره، فلم يأتوا بفرق معقول، بل قالوا هذا يقترن به التحدي، فمن ادعى النبوة وهو كاذب لم يجز أن يخرق الله له العادة أو يخرقها له، ولا يكون دليلاً على صدقه لما يقترن بها مما يناقض ذلك، فإن هذين قولان لهم.

فقيل لهم: لم أوجبتم هذا في هذا الموضع دون غيره، وأنتم لا توجبون على الله شيئاً؟ فقالوا: لأن المعجزة علم الصدق، فيمتنع أن يكون لغير صادق. فالمجموع هو الممتنع وهو خارق العادة ودعوى النبوة، أو هذان مع السلامة عن المعارض. فقيل لهم: ولم قلتم أنه علم الصدق على قولكم؟ فقالوا: إما لأن يفضي منع ذلك إلى عجزه، وإما لأن دلالته على الصدق بالضرورة. فقيل لهم: إنما يلزم العجز لو كان التصديق على قولكم ممكناً، وكون دلالتها معلومة بالضرورة هو مسلم، لكنه يناقض أصولكم، ويوجب أن يكون أحد الشيئين معلوماً بالضرورة دون نظيره، وهذا ممتنع فإنكم تقولون: يجوز أن يخلق على يد مدعي النبوة والساحر والصالح، لكن إن ادعى النبوة دلت على صدقه، وإن لم يدع النبوة لم يدل على شيء، مع أنه لا فرق عند الله بين أن يخلقها على يد مدعي النبوة، وغير مدعي النبوة، بل كلاهما جائز فيه. فإذا كان هذا مثل هذا فلم كان أحدهما دليلاً دون الآخر؟ ولم اقترن العلم بأحد المتماثلين دون الآخر؟ ومن أين علمتم أن الرب لا يخرقها مع دعوى النبوة إلا على يد صادق، وأنتم تجوزون على أصلكم كل فعل مقدور، وخلقها على يد الكاذب مقدور؟.

ثم هؤلاء جوزوا كرامات الصالحين، ولم يذكروا بين جنسها وجنس كرامات الأنبياء فرقاً، بل صرح أئمتهم أن كل ما خرق لنبي يجوز أن يخرق للأولياء حتى معارج محمد، وفرق البحر لموسى وناقة صالح وغير ذلك، ولم يذكروا بين المعجزة والسحر فرقاً معقولاً، بل قد يجوزون أن يأتي الساحر بمثل ذلك، لكن بينهما فرق دعوى النبوة وبين الصالح والساحر والبر والفجور، وحذاق الفلاسفة الذين تكلموا في هذا الباب مثل إبن سينا، وهو أفضل طائفتهم، ولكنه أجهل من تكلم في هذا الباب. فإنهم جعلوا ذلك كله من قوى النفس، لكن الفرق أن النبي والصالح

---

(١) أي أتباع جهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله سالم بن أهوز المارني في بمرو في آخر ملك بني أمية.

نفسه طاهرة يقصد الخير، والساحر نفسه خبيثة. وأما الفرق بين النبي والصالح فمتعذر على قول هؤلاء.

ومن الناس من فرق بين معجزات الأنبيآء وكرامات الأوليآء بفروق ضعيفة، مثل قولهم: الكرامة يخفيها صاحبها، أو الكرامة لا يتحدى بها، ومن الكرامات ما أظهرها أصحابها كإظهار العلاء بن الحضرمي[1] المشي على الماء، وإظهار عمر مخاطبة سارية على المنبر، وإظهار أبي مسلم لما ألقي في النار صارت عليه برداً وسلاماً. وهذا بخلاف من يدخلها بالشياطين فإنه قد يطفئها، إلا أنها لا تصير عليه برداً وسلاماً، وإطفاء النار مقدور الأنس والجن. ومنها ما يتحدى بها صاحبها أن دين الإسلام حق كما فعل خالد بن الوليد لما شرب السم، وكالغلام الذي أتى الراهب وترك الساحر، وأمر بقتل نفسه بسهمه باسم ربه، وكان قبل ذلك قد خرقت له العادة فلم يتمكنوا من قتله، ومثل هذا كثير.

[أقسام المراتب]:

فيقال المراتب ثلاثة: آيات الأنبيآء، ثم كرامات الصالحين، ثم خوارق الكفار والفجار كالسحرة والكهان، وما يحصل لبعض المشركين وأهل الكتاب والضلال من المسلمين. أما الصالحون الذين يدعون إلى طريق الأنبيآء لا يخرجون عنها فتلك خوارقهم من معجزات الأنبيآء، فإنهم يقولون نحن إنما حصل لنا هذا باتباع الأنبيآء، ولو لم نتبعهم لم يحصل لنا هذا، فهؤلاء إذا قدر أنه جرى على يد أحدهم ما هو من جنس ما جرى للأنبيآء، كما صارت النار برداً وسلاماً على أبي مسلم، كما صارت على إبراهيم، وكما يكثر الله الطعام والشراب لكثير من الصالحين، كما جرى في بعض المواطن للنبي، أو إحياء الله ميتاً لبعض الصالحين كما أحياه للأنبيآء، فهذه الأمور هي مؤكدة لآيات الأنبيآء، وهي أيضاً من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الإرهاص، ومع هذا فالأوليآء دون الأنبيآء والمرسلين، فلا تبلغ كرامات أحد قط إلى مثل معجزات المرسلين، كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب إلى درجاتهم، ولكن قد يشاركونهم في بعضها كما قد يشاركونهم في بعض أعمالهم، وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذي جاء به الرسول لا تدل على أن الولي معصوم، ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله.

---

(١) هو العلاء بن الحضرمي، كان عامل النبي ﷺ، وكان يقول في دعائه: يا عليم يا حليم يا علي يا عظيم فيستجاب له، دعا الله بأنهم يسقون ويتوضؤن لما عدموا الماء ولا يبقى بعدهم فأجيب، ودعا الله لما إعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور عليه فمر هو والعسكر بخيولهم، ودعاء الله أن لا يروا جسده إذا مات فلم يجدوه في اللحد، توفي سنة إحدى وعشرين للهجرة.

ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم، فإن الحواريين وغيرهم كانت لهم كرامات كما تكون الكرامات لصالحي هذه الأمة، فظنوا أن ذلك يستلزم عصمة الأنبيآء، فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون، وهذا غلط، فإن النبي وجب قبول كل ما يقول لكونه نبياً ادعى النبوة، ودلت المعجزة على صدقه، والنبي معصوم، وهنا المعجزة ما دلت على النبوة بل على متابعة النبي وصحة دين النبي، فلا يلزم أن يكون هذا التابع معصوماً، ولكن الذي يحتاج إلى الفرقان الفرق بين الأنبيآء وأتباعهم وبين من خالفهم من الكفار والفجار كالسحرة والكهان وغيرهم، حتى يظهر الفرق بين الحق والباطل، وبين ما يكون دليلاً على صدق صاحبه كمدعي النبوة، وبين ما لا يكون دلي على صدق صاحبه، فإن الدليل لا يكون دليلاً حتى يكون مستلزماً للمدلول متى وجد وجد المدلول، وإلا فإذا وجد تارة مع وجود المدلول، وتارة مع عدمه فليس بدليل. فآيات الأنبيآء وبراهينهم لا توجد إلا مع النبوة ولا توجد مع ما يناقض النبوة، ومدعي النبوة إما صادق وإما كاذب، والكذب يناقض النبوة، فلا يجوز أن يوجد مع المناقض لها مثل ما يوجد معها، وليس هنا شيء مخالف لها ولا مناقض، فإن الكفر والسحر والكهانة كل هذا يناقض النبوة ولا يجتمع هو والنبوة.

والناس رجلان: رجل موافق لهم، ورجل مخالف لهم. فالمخالف مناقض، وإذا كان كذلك فيقال جنس آيات الأنبيآء خارجة عن مقدور البشر، بل وعن مقدور جنس الحيوان. وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان فإنها من جنس أفعال الحيوان من الإنس وغيره من الحيوان والجن مثل: قتل الساحر، وتمريضه لغيره، فهذا أمر مقدور معروف للناس بالسحر وغير السحر، وكذلك ركوب المكنسة أو الخابية[1] أو غير ذلك حتى تطير به، وطيرانه في الهواء من بلد إلى بلد، هذا فعل مقدور للحيوان، فإن الطير تفعل ذلك، والجن تفعل ذلك، وقد أخبر الله أن العفريت قال لسليمان: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقومَ مِن مَقَامِكَ﴾[2]، وهذا تصرف في اعراض الحي، فإن الموت والمرض والحركة أعراض، والحيوان يقبل في العادة مثل هذه الأعراض، ليس في هذا قلب جنسٍ إلى جنس، ولا في هذا ما يختص الرب بالقدرة عليه، ولا ما يختص به الملآئكة. وكذلك إحضار ما يحضر من طعام أو نفقة أو ثياب، أو غير ذلك من الغيب، وهذا إنما هو نقل مال من مكان إلى مكان، وهذا تفعله الأنس والجن، لكن الجن يفيض حتى يصير كثيراً، بأن ينبع من بين الأصابع من غير زيادة يزادها، فهذا لا يقدر عليه أنسي ولا جني.

وكذلك الأخبار ببعض الأمور مع الكذب في بعض الأخبار، فهذا تفعله الجن كثيراً مع

---

(١) الخابية: وعاء الماء الذي يحفظ فيه.

(٢) سورة النمل: الآية ٣٩.

الكهان، وهو معتاد لهم مقدور، بخلاف أخبارهم بما يأكلون وما يدخرون مع تسمية الله على ذلك، فهذا لا تظهر عليه الشياطين، وبنو إسرائيل كانوا مسلمين يسمون الله. وأيضاً فخبر المسيح وغيره من الأنبيآء ليس فيه كذب قط، والكهان لا بد لهم من الكذب، والرب قد أخبر في القرآن أن الشياطين تنزل على بعض الناس فتخبره ببعض الأمور الغائبة، لكن ذكر الفرق فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلى كُل أَفّاكٍ أثيمٍ يُلقُونَ السَمْعَ وَأكثرُهُم كاذبُون﴾[1]، وكذلك مسرى الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ليريه الرب من آياته، فخاصة الرسول ليست مجرد قطع هذه المسافة، بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يخبّر به، فهذا لا يقدر عليه الجن، وهو نفسه لم يحتج بالمسرى على نبوته، بل جعله مما يؤمن به فأخبرهم به ليؤمنوا به، والمقصود إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذي رآه تلك الليلة، وإلا فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى ولهذا قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرؤيَا التي أرَيناكَ إلا فِتنةً للنّاس والشَجَرَةَ المَلْعونَةَ في القُرآن﴾[2].

قال ابن عباس رضي الله عنه: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به، وهكذا كما قيل في الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سدْرَة المُنْتَهى عِنْدَهَا جَنّةُ المَأْوَى إذْ يَغْشَى السِدرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طغَى لَقَدْ رَأى مِن آياتِ رَبِّهِ الكبرى﴾[3].

وكذلك ما يخبر به الرسول من أنباء الغيب قال تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيبِهِ أحداً إلاَّ مَن ارتَضَى مِنْ رَسُولٍ فإنّهُ يَسْلُكُ مِن بَينِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصداً﴾[4]. فهذا غيب الرب الذي اختص به، مثل علمه بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق، فإن هذا لا يقدر عليه إلا الله. والجن غايتها أن تخبر ببعض الأمور المستقبلة، كالذي يسترقه الجن من السماء، مع ما في الجن من الكذب، فلا بد لهم من الكذب، والذي يخبرون به هو مما يعلم بالمنامات وغير المنامات فهو من جنس المعتاد للناس.

وأما ما يخبر الرسل من الأمور البعيدة الكبيرة مفصلاً مثل اخباره «أنكُم تُقَاتِلونَ التُركَ صِغَارَ الأعينِ ذُلْفُ[5] الأنف[6] يَنْتَعِلونَ الشَعرَ كأن وجوهَم المجان المُطرقة». وقوله ﷺ[7]:

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٢٢.
(٢) سورة الأسراء: الآية ٦٠.
(٣) سورة النجم: الآية ١٣.
(٤) سورة الجن: الآية ٢٦.
(٥) أي صغر واستوى أو صغر ودق أو صغر وغلظ، فهو أذلف.
(٦) جمع قلة للأنف وضع موضع جمع الكثرة.
(٧) زيدت على المطبوع.

«لا تقوم الساعةُ حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تُضيءُ لها أعناقُ الإبلِ بِبُصْرىَ»[1] ونحو ذلك. فهذا لا يقدر عليه جني ولا أنسي، والمقصود أن ما يخبر به عن النبي من الغيب معتاد معروف نظيره من الجن والإنس، فهو من جنس المقدور لهم، وما يخبر به النبي خارج عن قدرة هؤلاء وهؤلاء، فهو من غيب الله الذي قال فيه: ﴿فلا يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أحداً إلاَّ من ارْتَضَى مِنْ رسول﴾[2].

[الآيات الخارقة]:

والآيات الخارقة جنسان: جنس في نوع العلم، وجنس في نوع القدرة، فما اختص به النبي من العلم خارج عن قدرة الإنس والجن، وقدرة الجن في هذا الباب كقدرة الإنس لأن الجن هم من جملة من دعاه الأنبيآء إلى الإيمان، وأرسلت الرسل إليهم قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الجنِّ والإنسِ أَلَمْ يَأتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُم يَقُصُّونَ عَلَيكُم آياتي وَيُنْذِرونَكُم لقَاءَ يومِكُم هَذا﴾[3]. ومعلوم أن النبي إذا دعا الجن إلى الإيمان به، فلا بد أن يأتي بآية خارجة عن مقدور الجن، فلا بد أن تكون آيات الأنبيآء خارجة عن مقدور الإنس والجن. وما يأتي به الكاهن من خبر الجن غايته أنه سمعه الجني لما استرق السمع مثل الذي يستمع إلى حديث قوم وهم له كارهون. وما أعطاه الله سليمان مجموعه يخرج عن قدرة الإنس والجن، كتسخير الرياح والطير. وأما الملائكة فالأنبيآء لا تدعو الملائكة إلى الإيمان بهم، بل الملائكة تنزل بالوحي على الأنبيآء تعينهم وتؤيدهم، فالخوارق التي تكون بأفعال الملائكة تختص بالأنبيآء وأتباعهم، لا تكون للكفار والسحرة والكهان. ولهذا أخبر الله تعالى أن الذي جاءه بالقرآن ملك لا شيطان فقال: ﴿إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٌ كَريم ذي قُوَةٍ عِنْدَ ذي العَرشِ مكينٍ، مُطاعٍ ثمَّ أمينٍ وَمَا صَاحِبُكُم بمجْنُون وَلَقَدْ رَآهُ بالأفقِ المبينِ وَمَا هُوَ على الغَيبِ بِظَنين وَمَا هُوَ بقَولِ شَيْطَانٍ رَجِيم﴾[4] وقال: ﴿نَزَلَ به الروحُ الأمِينُ عَلىَ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرين﴾[5]. وقال: ﴿قُل نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بالحَقِّ﴾[6] وقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدواً لجبريلِ فَإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بإذنِ الله﴾[7] وقال: ﴿هَلْ أنبئكُمْ عَلىَ مَن تَنَزَّلُ الشَياطينُ تَنَزَّلُ عَلى كُلِ أفَّاكٍ أثيمٍ يُلقُونَ السَمْعَ وأكثرهم كَاذِبُونَ﴾[8]. فينبغي

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) سورة الجن: الآيتان ٢٦، ٢٧.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٣٠.
(٤) سورة الحاقة الآية ٤٠.
(٥) سورة الشعراء الآية ١٠٥.
(٦) سورة النحل الآية ١٠٢.
(٧) سورة البقرة الآية ٩٧.
(٨) سورة الشعراء الآية ٢٢٢.

أن يتدبر هذا الموضع، وتعرف الفروق الكثيرة بين آيات الأنبيآء وبين ما يشتبه بها، كما يعرف الفرقَ بين النبي وبين المتنبيء، وبين ما يجيء به النبي، وما يجيء به المتنبيء. فالفرق حاصل في نفس صفات هذا، وصفات هذا، وأفعال هذا، وأفعال هذا، وأمر هذا، وأمر هذا، وخبر هذا، وخبر هذا، وآيات هذا، وآيات هذا، إذ الناس محتاجون إلى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم إلى غيره، والله تعالى يبينه وييسره، ولهذا أخبر أنه أرسل رُسُله بالآيات البينات، وكيف يشبه خير الناس بشر الناس، ولهذا لما مثلوا الرسول بالساحر وغيره قال تعالى: ﴿أُنظُر كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَستَطيعونَ سَبيلاً﴾[1] وقد تنازع الناس في الخوارق: هل تدل على صلاح صاحبها وعلى ولايته لله. والتحقيق أن من كان مؤمناً بالأنبيآء لم يستدل على الصلاح بمجرد الخوارق التي قد تكون للكفار والفساق، وإنما يستدل بمتابعة الرجل للنبي، فيميز بين أولياء الله وأعدائه بالفروق التي بينها الله ورسوله كقوله: ﴿أَلاَ إن أولياءَ الله لاَ خَوْفٌ عليهم ولاَ هُم يَحْزَنُون الذينَ آمَنوا وكانوا يَتَقون﴾[2].

وقد علق السعادة بالإيمان والتقوى في عدة مواضع، كقوله لما ذكر السحرة: ﴿ولو أنهم آمَنُوا وَاتقوا لَمَثُوبَةٌ مِن عندِ الله خيرٌ لو كانوا يَعلمون﴾[3]. وقوله عن يوسف: ﴿نُصيبُ برحمتنا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضيعُ أَجرَ المُحسنينَ وَلأَجرُ الآخرة خَيْرٌ للذِينَ آمنوا وَكَانُوا يَتقُون﴾[4]. وقوله في قصة صالح ﴿وَنَجيْنَا الذينَ آمنُوا وَكانُوا يَتقُونَ﴾[5]. وهذه طريقة الصحابة والسلف.

وأما دلالتها على ولاية المعين فالناس متنازعون: هل الولي والمؤمن من مات على ذلك بحيث إذا كان مؤمناً تقياً وقد علم أنه يموت كافراً، يكون في تلك الحال عدواً لله؟ أو ينتقل من إيمان وولاية إلى كفر وعداوة؟ وهما قولان معروفان: فمن قال بالأول، فالولي عنده كالمؤمن عند من علم أنه يموت على تلك الحال، والخوارق لا تدل على ذلك، ولهذا قال هؤلاء كالقاضي أبي بكر وأبي يعلى وغيرهما، أنها لا تدل: وأما من قال: الولاية تتبدل، فالولاية هنا كالإيمان، وقد يعلم أن الرجل مؤمن في الباطن تقي بدلائل كثيرة، وقد يطلع الله بعض الناس على خاتمة غيره، فهذا لا يمتنع، لكن هذا مثل الشهادة لمعين بالجنة، وفيها ثلاثة أقوال:

قيل: لا يشهد بذلك لغير النبي، وهو قول أبي حنيفة، والأوزاعي، وعلي بن المديني

---

(١) سورة الفرقان الآية ٩.

(٢) سورة يونس الآية ٦٢.

(٣) سورة البقرة الآية ١٠٣.

(٤) سورة يوسف الآيتان ٥٦، ٥٧.

(٥) سورة فصلت الآية ١٨.

وغيرهم. وقيل: يشهد به لمن جاء به نص إن كان خبراً صحيحاً، كمن شهد له النبي بالجنة فقط، وهذا قول كثير من أصحابنا وغيرهم.

وقيل يشهد به لمن استفاض عند الأمة أنه رجل صالح، كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وغيرهما، وكان أبو ثور يشهد لأحمد بن حنبل بالجنة، وقد جاء في الحديث الذي في المسند: «يُوشِكُ أن تَعلَموا أهلَ الجنّةِ من أهلِ النارِ» قالوا: بمَاذا يا رسول الله؟ قال: «بالثنَاءِ الحَسَنْ والثّنَاءِ السَيءِ»(١).

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ مرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال: «وَجَبَت وَجَبَت»، ومرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً فقال: «وَجَبَت وَجَبَت». فَقِيل: يا رسول الله ما قولك وجبت وجبت؟ قَالَ: «هذه الجَنَازَةُ أثنيتُم عليها الخيرَ فقلتُ: وَجَبَت لهَا الجَنّةُ، وهذه الجنازةُ أثنيتُم عليها شراً فقُلتُ: وَجَبَتْ لَهَا النّارُ، أنتُم شُهداءُ الله في الأرضِ»، وفي حديث آخر: «إذا سَمعتَ جيرانَكَ يَقُولُونَ قَد أحسنتَ فَقد أحسنتَ، وإذا سمعتهُم يَقولونَ قَد أسَأتَ فَقَدْ أسأتَ».

وسئل عن الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه فقال: «تِلكَ عَاجِلُ بُشرى المُؤمنِ».

والتحقيق أن هذا قد يعلم بأسباب وقد يغلب على الظن، ولا يجوز للرجل أن يقول بما لا يعلم: ولهذا لما قالت أم العلاء الأنصارية: لما قدم المهاجرون المدينة، اقترعت الأنصار على سكناهم فصار لنا عثمان بن مظعون في السكنى، فمرض فَمَرّضناه، ثم توفي، فجاء رسول الله ﷺ فدخل، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي أن قد أكرمك الله قال النبي ﷺ «وَمَا يُدرِيكِ أنَّ الله قَد أكْرَمَه؟» قالت: لا والله لا أدري. فقال النبي ﷺ: «أما هوَ فَقد أتاه اليقينُ مِنْ رَبِهِ وإني لأرجوُ لَهُ الخيرَ، والله ما أدري وأنا رَسُولُ الله ما يُفْعَلُ بي وَلاَ بِكم» قالت: فوالله لا أزكي بَعدهُ أحداً أبداً، قالت: ثم رأيت لعثمان رضي الله عنه بعد في النوم عيناً تجري، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «ذَاكَ عملُهُ».

وأما من لم يكن مقراً بالأنبيآء، فهذا لا يعرف الولي من غيره، إذ الولي لا يكون ولياً إلا إذا آمن بالرسل. لكن قد تدل الخوارق على أن هؤلاء على الحق دون هؤلاء لكونهم من أتباع الأنبيآء، كما قد يتنازع المسلمون والكفار في الدين، فيؤيد الله المؤمنين بخوارق تدل على

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٢٠) وزاد فيه «أنتم شهداء بعضكم على بعض».

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجة والترمذي والنسائي والحاكم بألفاظ متقاربة.

صحة دينهم كما صارت النار على أبي مسلم برداً وسلاماً. وكما شرب خالد السم، وأمثال ذلك، فهذه الخوارق هي من جنس آيات الأنبيآء، وقد يجتمع كفار ومسلمون ومبتدعة وفجار، فيؤيد هؤلاء بخوارق تعينهم عليها الجن والشياطين، ولكن جنهم وشياطينهم أقرب إلى الإسلام، فيترجحون بها على أولئك الكفار عند من لا يعرف النبوات، كما يجري لكثير من المبتدعة والفجار مع الكفار، مثل ما يجري للأحمدية وغيرهم، مع عباد المشركين البخشية قدام التتار، كانت خوارق هؤلاء أقوى لكونهم كانوا أقرب إلى الإسلام.

وعند من هو أحق بالإسلام منهم لا تظهر خوارقهم، بل تظهر خوارق من هو أتم إيماناً منهم، وهذا يشبه رد أهل البدع على الكفار بما فيه بدعة، فإنهم وإن ضلوا من هذا الوجه فهم خير من أولئك الكفار، لكن من أراد أن يسلك إلى الله على ما جاء به الرسول يضره هؤلاء، ومن كان جاثراً نفعه هؤلاء، بل كلام أبي حامد[1] ينفع المتفلسف ويصير أحسن، فإن المتفلسف يسلم به إسلام الفلاسفة، والمؤمن يصير به إيمانه مثل إيمان الفلاسفة، وهذا أردأ من هذا بخلاف ذاك.

[فائدة الخوارق]:

والخوارق ثلاثة أنواع إما أن تعين صاحبها على البر والتقوى، فهذه أحوال نبينا ومن اتبعه، خوارقهم لحجة في الدين أو حاجة للمسلمين:

والأول: مثل إرسال نبينا إلى الجن يدعوهم إلى الإيمان، فهذا أكمل من استخدام الجن في بعض الأمور المباحة، كاستخدام سليمان عليه السلام لهم في محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات، قال تعالى: ﴿يَعملونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَحَارِيبَ وَتماثيلَ وَجفَانٍ كِالجَوابي وَقُدُورٍ راسياتٍ إعمَلُوا آل دَاود شُكراً، وَقَليلٌ من عبَادي الشَكُورُ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنهم عَن أَمرِنا نُذِقْهُ مِن عَذَابِ السَعيرِ﴾[3] ونبينا أرسل إليهم يدعوهم إلى الإيمان بالله وعبادته كما أرسل إلى الانس، فإذا اتبعوه صاروا سعداء، فهذا أكمل له ولهم من ذاك، كما أن العبد الرسول أكمل من النبي الملك، ويوسف وداود وسليمان عليهم السلام أنبياء ملوك، وأما محمد ﷺ فهو عبد رسول كإبراهيم وموسى والمسيح عليهم السلام، وهذا الصنف أفضل، وأتباعهم أفضل.

---

(١) أي الغزالي.

(٢) سورة سبأ الآية ١٣.

(٣) سورة سبأ الآية ١٢.

والثاني: أن تعينهم على مباحات، كمن تعينه الجن على قضاء حوائجه المباحة، فهذا متوسط، وخوارقه لا ترفعه ولا تخفضه، وهذا يشبه تسخير الجن لسليمان عليه السلام.

والثالث: أن تعينه على محرمات مثل الفواحش والظلم والشرك والقول الباطل، فهذا من جنس خوارق السحرة والكهان والكفار والفجار، مثل أهل البدع من الرفاعية وغيرهم فإنهم يستعينون بها على الشرك، وقتل النفوس بغير حق والفواحش، وهذه الثلاثة هي التي حرمها الله في قوله: ﴿والذينَ لاَ يَدعونَ مَع الله إلهاً آخَر وَلاَ يَقتُلونَ النَفْسَ التي حَرَّمَ الله إلاَّ بالحَقِ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَل ذَلِكَ يَلْقَ أثاماً﴾[1].

ولهذا كانت طريقهم من جنس طريق الكهان والشعراء والمجانين، وقد نزه الله نبيه عن أن يكون مجنوناً وشاعراً وكاهناً، فإن إخبارهم بالمغيبات عن شياطين تنزل عليهم كالكهان وأقوى أحوالهم لمؤلهيهم، وهم من جنس المجانين، وقد قال شيخهم: إن أصحاب الأحوال منهم يموتون على غير الإسلام، وأما سماعهم ووجدهم فهو شعر الشعراء، ولهذا شبههم من رآهم بعباد المشركين من الهند الذين يعبدون الأنداد.

***

(١) سورة الفرقان الآية ١٢.

فصل
خصوصية آية النبي

وحقيقة الأمر: أن ما يدل على النبوة هو آية على النبوة وبرهان عليها، فلا بد أن يكون مختصاً بها، لا يكون مشتركاً بين الأنبيآء وغيرهم، فإن الدليل هو مستلزم لمدلوله، لا يجب أن يكون أعم وجوداً منه، بل إما أن يكون مساوياً له في العموم والخصوص، أو يكون أخص منه، وحينئذ فآية النبي لا تكون لغير الأنبيآء، لكن إذا كانت معتادة لكل نبي أو لكثير من الأنبيآء لم يقدح هذا فيها، فلا يضر أن تكون معتادة للأنبيآء، وكون الآية خارقة للعادة أو غير خارقة هو وصف لم يصفه القرآن والحديث ولا السلف، وقد بينا في غير هذا الموضع أن هذا وصف لا ينضبط هو عديم التأثير، فإن نفس النبوة معتادة للأنبيآء خارقة للعادة بالنسبة إلى غيرهم.

إن كون الشخص يخبره الله خبراً معصوماً هذا مختص بهم، وليس هو موجوداً لغيرهم فضلاً عن كونه معتاداً.

فآية النبي لا بد أن تكون خارقة للعادة، بمعنى أنها ليست معتادة للآدميين، وذلك لأنها حينئذ لا تكون مختصة بالنبي بل مشتركة. وبهذا احتجوا على أنه لا بد أن تكون خارقة للعادة، لكن ليس في هذا ما يدل على أن كل خارق آية، فالكهانة والسحر هو معتاد للسحرة والكهان، هو خارق بالنسبة إلى غيرهم، كما أن ما يعرفه أهل الطب والنجوم والفقه والنحو هو معتاد لنظرائهم، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم.

ولهذا إذا أخبر الحاسب بوقت الكسوف والخسوف تعجب الناس إذا كانوا لا يعرفون طريقه، فليس في هذا ما يختص بالنبي، وكذلك قراءة القرآن بعد أن بعث محمد ﷺ صارت مشتركة بين النبي وغيره. وأما نفس الابتداء به فهو المختص بالنبي، وكذلك ما يرويه من أنباء الغيب عن الأنبيآء لما صار مشتركاً بين النبي وغيره لم يبق آية بخلاف الابتداء به.

فالكهانة مثلاً وهو الاخبار ببعض الغائبات عن الجن أمر معروف عند الناس، وأرض العرب كانت مملوءة من الكهان، وإنما ذهب ذلك بنبوة محمد ﷺ وهم يكثرون في كل موضع نقص فيه أمر النبوة، فهم كثيرون في أرض عباد الأصنام، ويوجدون كثيراً عند النصارى،

ويوجدون كثيراً في بلاد المسلمين حيث نقص العلم والإيمان بما جاء به الرسول، لأن هؤلاء أعداء الأنبيآء، والله تعالى قد ذكر الفرق بينهم وبين الأنبيآء فقال: ﴿هل أُنبئكُم عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أفاكٍ أثيم يُلقُونَ السَمْعَ وَأكثرهم كَاذِبُون﴾[1].

فهؤلاء لا بد أن يكون في أحدهم كذب وفجور، وذلك يناقض النبوة، فمن ادعى النبوة وأخبر بغيوب من جنس أخبار الكهان كان ما أخبر به خرقاً للعادة عند أولئك القوم، لكن ليس خرقاً لعادة جنسه من الكهان، وهم إذا جعلوا ذلك آية لنبوته كان ذلك لجهلهم، لوجود هذا الجنس لغير الأنبيآء، كالذين صدقوا مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي والحارث الدمشقي وبابا الرومي، وغير هؤلاء من المتنبئين الكذابين، وكان هؤلاء يأتون بأمور عجيبة لعادة القوم، لكن ليست خارقة لعادة جنسهم ممن ليس بنبي، فمن صدقهم ظن أن هذا مختص بالأنبيآء، وكان من جهله بوجود هذا لغير الأنبيآء كما أنهم كانوا يأتون بأمور تناقض النبوة.

ولهذا يجب في آيات الأنبيآء أن لا يعارضها من ليس بنبي، فكل ما عارضها صادراً ممن ليس من جنس الأنبيآء، فليس من آياتهم. ولهذا طلب فرعون أن يعارض ما جاء به موسى لما ادعى أنه ساحر، فجمع السحرة ليفعلوا مثل ما يفعل موسى، فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة، وأمرهم موسى أن يأتوا أولاً بخوارقهم، فلما أتت وابتلعتها العصا التي صارت حية، علم السحرة إن هذا ليس من جنس مقدورهم، فآمنوا إيماناً جازماً، ولما قال لهم فرعون: ﴿لأصلبنكُم في جُذُوعِ النَخْلِ ولتعلَمُنَّ أيُّنَا أشد عَذَاباً وَأبقَى قَالوا لَنْ نُؤثرك عَلى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيناتِ وَالَذي فَطَرَنَا﴾[2]. وقالوا: ﴿آمنّا بربِ العالمين رب مُوسى وَهارون﴾[3]. فكان من تمام علمهم هذا مختص بمثل هذا، فدل على صدق دعواه، وفرعون وقومه بين معاند وجاهل استخفه فرعون كما قال تعالى: ﴿فَاستَخَفَّ قَومهُ فأطاعُوهُ﴾[4]. فإذا قيل لهم: المعجزة هي الفعل الخارق للعادة، أو قيل هي الفعل الخارق للعادة المقرون بالتحدي، أو قيل مع ذلك الخارق للعادة السليم عن المعارضة، فكونه خارقاً للعادة ليس أمراً مضبوطاً، فإنه إن أريد به أنه لم يوجد له نظير في العالم فهذا باطل، فإنَّ آيات الأنبيآء بعضها نظير بعض، بل النوع الواحد منه كإحياء الموتى هو آية لا نظير لها كالقرآن والعصا والناقة لم يلزم ذلك في سائر الآيات.

ثم هب أنهُ لا نظير لها في نوعها لكن وجد خوارق العادات للأنبيآء غير هذا، فنفس خوارق العادات معتاد جميعه للأنبيآء، بل هو من لوازم نبوتهم مع كون الأنبيآء كثيرين، وقد روى

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٢٢.
(٢) سورة طه: الآية ٧١.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٢٠.
(٤) سورة الزخرف: الآية ٥٤.

أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، وما يأتي به كل من هؤلاء لا يكون معدوم النظير في العالم، بل ربما كثر نظيره، وإن عني بكون المعجزة هي الخارق للعادة فأنها خارقة لعادة أولئك المخاطبين بالنبوة، بحيث ليس فيهم من يقدر على ذلك، فهذا ليس بحجة، فإن أكثر الناس لا يقدرون على الكهانة والسحر ونحو ذلك، وقد يكون المخاطبون بالنبوة ليس فيهم هؤلاء كما كان أتباع مسيلمة والعنسي وأمثالهم لا يقدرون على ما يقدر عليه هؤلاء، والمبرز في فن من الفنون يقدر عليه أحد في زمنه، وليس هذا دليلاً على النبوة، فكتاب سيبويه مثلاً مما لا يقدر على مثله عامة الخلق، وليس بمعجز إذ كان ليس مختصاً بالأنبيآء، بل هو موجود لغيرهم، وكذلك طب أبقراط[1] بل وعلم العالم الكبير من علماء المسلمين خارج عن عادة الناس، وليس هو دليلاً على نبوته، وأيضاً الشيء معتاداً هو مأخوذ من العود، وهذا يختلف بحسب الأمور فالحائض المعتادة، من الفقهاء من يقول تثبت عادتها بمرة، ومنهم من يقول بمرتين ومنهم من يقول لا تثبت إلا بثلاث، وأهل كل بلد لهم عادات في طعامهم ولباسهم وأبنيتهم لم يعتدها غيرهم، فما خرج عن ذلك فهو خارق لعادتهم لا لعادة من اعتاده من غيرهم، فلهذا لم يكن في كلام الله ورسوله وسلف الأمة وأئمتها وصف آيات الأنبيآء بمجرد كونها خارقة للعادة، ولا يجوز أن يجعل مجرد خرق العادة هو الدليل، فإن هذا لا ضابط له، وهو مشترك بين الأنبيآء وغيرهم، ولكن إذا قيل من شرطها أن تكون خارقة للعادة بمعنى أنها لا تكون معتادة للناس فهذا ظاهر يعرفه كل أحد. ويعرفون أن الأمر المعتاد مثل الأكل والشرب والركوب والسفر وطلوع الشمس وغروبها ونزول المطر في وقته، وظهور الثمرة في وقتها، ليس دليلاً، ولا يدعي أحد أن مثل هذا دليل له، فإن فساد هذا ظاهر لكل أحد، ولكن ليس مجرد كونه خارقاً للعادة كافياً لوجهين: أحدهما: أن يكون مألوفاً ومجرباً ومعروفاً، ونحو ذلك من الصفات الإضافية.

الثاني: أن مجرد ذلك مشترك بين الأنبيآء وغيرهم وإذا خص ذلك بعدم المعارضة، فقد يأتي الرجل بما لا يقدر الحاضرون على معارضته ويكون معتاداً لغيرهم كالكهانة والسحر، وقد يأتي مما لا يمكن معارضته، وليس بآية لشيء لكونه لم يختص بالأنبيآء، وقد يقال في طب أبقراط ونحو سيبويه أنه لا نظير له، بل لا بد أن يقال أنه مختص بالأنبيآء والطب والنحو والفقه، وإن أتى الواحد بما لا يقدر غيره على نظيره فليس مختصاً بالأنبيآء، بل معروف أن هذا تعلم بعضه من غيره واستخرج سائره بنظره، وإذا خص الله طبيباً أو نحوياً أو فقيهاً بما يميزه به على نظرائه لم يكن ذلك دليلاً على نبوته، وإن كان خارقاً للعادة، فإن ما يقوله الواحد من هؤلاء قد علمه بسماع أو تجربة أو قياس، وهي طرق معروفة لغير الأنبيآء. والنبي قد علمه الله من الغيب

(١) هو واضع الطب، وكان أكثر حكمته في الطب.

الذي عصمه فيه عن الخطأ ما لم يعلمه إلا نبي مثله. فإن قيل: فحينئذ لا يعرف أن الآية مختصة بالنبي حتى تعرف النبوة قبل، أما بعد وجود الأنبيآء في العالم فكهذا هو، ولهذا يبين الله عز وجل نبوة محمد في غير موضع باعتبارها نبوة من قبله، وتارة يبين أنه لم يرسل ملائكة، بل رجلاً من أهل القرى ليبين أن هذا معتاد معروف، ليس هو أمر لم تجر به عادة الرب كقوله تعالى: ﴿وَمَا أرسلنَا قبلك إلا رِجَالاً نُوحِيَ إليهم فَاسألوا أهلَ الذِكرِ إنْ كُنتم لاَ تعلمون﴾[1]. كما ذكره في سورة النحل والأنبيآء، وقال في يوسف: ﴿وَمَا أرسلنَا مِن قَبلِكَ إلا رِجَالاً نُوحي إليهم مِن أهلِ القُرىَ أَفَلَمْ يَسيروا في الأرضِ فَيَنظُروا كَيفَ كَانَ عَاقبةُ الذينَ مِن قَبلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيرٌ للذِينَ اتّقوا أَفَلاَ تعقِلون﴾[2]. فإن الكفار كانوا يقولون: إنما يرسل الله ملكاً، أو يرسل مع البشر ملكاً، كما قال فرعون: ﴿أم أنا خَيرٌ من هذا الذي هو مَهينٌ وَلا يَكادُ يُبين، فلولاَ أُلقيَ عَلَيهِ أَسْوَرَةٌ من ذَهبٍ أو جَاءَ مَعَهُ الملائِكَةُ مُقْتَرنين﴾[3]، وقال لقوم نوح: ﴿مَا هَـذا إلاَّ بَشَرٌ مثلكم يُريدُ أنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيكم وَلَوْ شَاءَ الله لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سمِعْنَا بهَـذا في آبائنَا الأولين﴾[4]. وقال مشركو العرب لمحمد: ﴿ما لهذا الرسول يَأكلُ الطَعَامَ وَيَمْشي في الأسواقِ لولاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فيكُونَ مَعهُ نَذِيراً، أو يُلقي إليه كِنزٌ أو تَكُونَ لَهُ جَنّةٌ يأكلُ منها﴾[5]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَع الناسَ أن يُؤْمِنُوا إذ جَاءهم الهُدى إلا أنْ قَالُوا أَبَعَثَ الله بَشراً رَسُولاً، قُلْ لَوكانَ في الأرضِ ملائِكَةٌ يمشُونَ مُطمئنينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَماءِ مَلِكاً رَسُولاً﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَليهِ مَلكٌ وَلَو أَنزلنَا مَلكاً لَقُضِيَ الأمرُ ثُم لاَ يَنْظُرون، وَلَو جَعَلْنَاهُ مَلكاً لَجعلنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبسنَا عليهم مَا يَلبِسُون﴾[7]. بيّن أنهم لا يطيقون الأخذ عن الملائكة إن لم يأتوا في صورة البشر، ولو جاءوا في صورة البشر لحصل اللبس.

وقال تعالى: ﴿أكانَ للناسِ عَجباً ان أوحينا إلى رجلٍ منهم أنْ أنذِرِ النّاس﴾[8]. وكانت العرب لا عهد لها بالنبوة من زمن إسماعيل فقال الله لهم: ﴿فاسألوا أهلَ الذِّكرِ﴾ يعني أهل الكتاب﴿إن كُنتم لا تَعلَمون﴾[9]، هل أرسل إليهم رجالاً أو ملائكة، ولهذا قال له: ﴿قُل مَا كُنتُ بدعاً مِن الرُسُلِ﴾[10] وقال: ﴿وَمَا مُحمدُ إلا رَسولٌ قد خَلَتْ مِن قَبلِه الرُسُل﴾[11]. بيّن أن

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧.
(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٩.
(٣) سورة الزخرف: الآية ٥٢ و٥٣.
(٤) سورة المؤمنون: الآية ٢٣.
(٥) سورة الفرقان: الآية ٧ و٨.
(٦) سورة الأسراء: الآية ٩٤ و٩٥.
(٧) سورة الأنعام: الآية ٨ و ٩.
(٨) سورة يونس: الآية ٢.
(٩) سورة النحل: الآية ٤٣.
(١٠) سورة الأحقاف: الآية ٩.
(١١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال، وهو سبحانه أمر أن يسأل أهل الكتاب وأهل الذكر عما عندهم من العلم من أمور الأنبيآء، هل هو من جنس ما جاء به محمد، أو هو مخالف له ليتبين بأخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الأنبيآء، وحينئذ فيعرف قطعاً أن محمداً نبي، بل هو أحق بالنبوة من غيره، والثاني أن يسألوهم عن خصوص محمد وذكره عندهم، وهذا يعرفه الخاصة منهم ليس هو معروفاً كالأول يعرفه كل كتابي قال تعالى: ﴿قُلْ أَرأَيتُم إِنْ كانَ من عندِ الله وكفرتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهدٌ من بني إسرائيل علَى مثلِهِ﴾[1].

وقوله ﴿شهد شاهد﴾ ليس المقصود شاهداً واحداً معيناً، بل ولا يحتمل كونه واحداً وقول من قال: إنه عبد الله بن سلام[2] ليس بشيء، فإن هذه نزلت بمكة قبل أن يعرف ابن سلام، ولكن المقصود جنس الشاهد كما تقول قام الدليل، وهو الشاهد الذي يجب تصديقه سواء كان واحداً قد يقترن بخبره ما يدل على صدقه، أو كان عدداً يحصل بخبرهم العلم بما تقول، فإن خبرك بهذا صادق وقوله ﴿على مثله﴾ فإن الشاهد من بني إسرائيل على مثل القرآن، وهو أن الله بعث بشراً وأنزل عليه كتاباً أمر فيه بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهى فيه عن عبادة ما سواه، وأخبر فيه أنه خلق هذا العالم وحده، وأمثال ذلك:

وقد ذكر في أول هذه السورة التوحيد، وبين أن المشركين ليس معهم على الشرك لا دليل عقلي ولا سمعي، فقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السمواتِ والأرضَ وَمَا بَيْنَهُما إلا بالحَقِّ وأجلٌ مُسمًى، والذينَ كفروا عَمَا أُنْذِروُا مُعرِضُون، قُلْ أرأيتُم مَا تَدعُونَ من دُونِ الله أَروني مَاذا خَلَقُوا من الأرضِ أَمْ لَهُمْ شركٌ في السَمَوَاتِ ائتوني بكتَابٍ منْ قَبْلِ هذا أو إثَارَة من علم إنْ كُنتُم صَادقين، وَمَن أَضَلُّ ممّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ الله مَنْ لاَ يَسْتَجِبْ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائهم غَافلونَ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين، وإذا تُتلى عَلَيهم آياتنا بَيّناتٍ قَالَ الذينَ كفروا لِلْحقِّ لَمّا جَاءهم هَذَا سِحْرٌ مُبين، أَمْ يَقُولُونَ افتَراهُ قُلْ إنْ افْتَريتُهُ فَلاَ تَملكونَ لي منَ الله شَيئاً هُو أعلَمُ بِمَا تَفيضُونَ فيهِ كَفَى بِهِ شَهيداً بَيني وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الغَفُور الرَحيم، قُلْ مَا كُنتُ بدعاً من الرُسلِ وَمَا أدري مَا يُفعلُ بيَ وَلاَ بكم إنْ أتبَعُ إلا ما يُوحى إليَ وَمَا أنَا إلا نَذيرٌ مبين، قُلْ أرأيتُم إنْ كَانَ من عند الله وَكَفَرتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهدٌ من بَني إسرائيلَ عَلى مثله﴾[3] إلى آخره.

(١) سورة الأحقاف: الآية ١٠.

(٢) هو عبد الله بن سلام الإسرائيلي، من سبط يوسف بن يعقوب ﷺ وقصة إسلامه مشهورة في المحاج وشهد له النبي ﷺ بالجنة، وهو المراد عنه بعض المفسرين بقوله تعالى: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ وقوله تعالى: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾، توفي سنة ثلاث وأربعين للهجرة (أنظر شذرات الذهب ١/٥٣).

(٣) سورة الأحقاف: الآيات ٢ ــ ١٠.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الذينَ كَفروا لَسْتَ مُرسلاً قُلْ كَفى بالله شَهيداً بَيني وَبَيْنَكُم وَمَنْ عندَهُ علم الكتاب﴾[1]. فمن عنده علم الكتاب شهد بما في الكتاب الأول وهو يوجب تصديق الرسول لأنه يشهد بالمثل، ويشهد أيضاً بالعين، وكل من الشهادتين كافية فمتى ثبت الجنس علم قطعاً أن المعين منه وقال تعالى: ﴿فَإنْ كُنتَ في شَكٍ ممّا أنزلنَا إليكَ فَاسأل الذينَ يَقرؤنَ الكتَابَ من قَبْلكَ لَقَد جَاءَكَ الحقُّ من رَبكَ فَلا تَكُونَنَّ من المُمتَرينَ، ولا تَكونَنَّ من الّذينَ كذبوا بآياتِ الله فتكونَ منَ الخاسِرين﴾[2]. وهذا سواء كان خطاباً للرسول والمراد به غيره أو خطاباً له وهو لغيره بطريق الأولى والمقدر قد يكون معدوماً أو ممتنعاً وهو يحرف إن كقوله ﴿قُلْ إنْ كَانَ للرحمَنِ وَلَدٌ فأنَا أولُ العَابدينَ﴾[3]. و﴿إنْ كُنْتُ قُلتُهُ فَقَدْ عَلمتَهُ﴾. والمقصود بيان الحكم على هذا التقدير إن كنت قلته فأنت عالم به وبما في نفسي، وإن كان له ولد، فأنا عابده، وإن كنت شاكاً فاسأل إن قدر إمكان ذلك، فسؤال الدين يقرأون الكتاب قبله إذا أخبروا فما عندهم شاهد له ودليل وحجة، ولهذا نهى بعد ذلك عن الأمتراء والتكذيب. وأما تقديرالممتنع بحرف إن فكثير. ومن ذلك قوله: ﴿فَإن استَطعْتَ أن تَبتغي نَفَقاً في الأرضِ، أو سُلّماً في السَّماءِ فَتأتيهم بآيةٍ﴾[4] ﴿فإن يُعيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكم مِنَ السماءِ والأرضِ أإلَهٌ مع الله قُلْ هاتوا بُرهَانَكُم إنْ كُنْتُم صَادِقين﴾[5]. ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مثله وادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُم مِنْ دُونِ الله إنْ كنتمْ صَادِقين﴾[6]. وقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لهم آيةً أن يَعلَمهُ عُلماءُ بَني إسرَائيل﴾[7] وقالَ تعالى: ﴿والذينَ آتيناهُم الكتَابَ يَعلمون أنَّهُ مُنَزَّلٌ منْ رَبِّكَ بالحَق﴾[8] وقال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ أوتُوا العِلمَ مِن قَبلِهِ إذا يُتْلى عَلَيهم يَخِرُّونَ الأذْقَانِ سُجّداً وَيقُولون سُبحَانَ رَبّنا إن كانَ وعدُ رَبنَا لمفعولاً﴾[9].

وقال تعالى: ﴿الذينَ آتيناهم الكتابَ مِنْ قَبلِهِ هُم به يؤمنون، وإذا يتْلى عَلَيْهِم قَالُوا آمنّابه إنَّهُ الحَقُّ من ربِّنا إنّا كُنّا مِن قَبلِهِ مُسلمين أولئكَ يُؤتَونَ أجْرَهم مَرَّتَينِ بِمَا صَبَرُوا﴾[9]. وهذا كله في السور المكية، والمقصود الجنس، فإذا شهد جنس هؤلاء مع العلم بصدقهم حصل المطلوب. لا يقف العلم على شهادة كل واحد واحد، فإن هذا متعذر. ومن أنكر أو قال لا أعلم

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤٣.
(٢) سورة يونس: الآية ٩٤ و ٩٥.
(٣) سورة الزخرف: الآية ٨١.
(٤) سورة الأنعام: الآية ٣٥.
(٥) سورة النمل: الآية ٣٩.
(٦) سورة المرسلات: الآية ٦٤.
(٧) سورة البقرة: الآية ١١١.
(٨) سورة يونس: الآية ٣٨.
(٩) سورة الشعراء: الآية ١٩٧.
(٧) سورة الأنعام: الآية ١١٤.
(٨) سورة الاسراء: الآية ١٠٧.
(٩) سورة القصص: الآية ٥٢.

لم يضر إنكاره. وإن قال بل أعلم عدم ما شهدوا به علم افتراؤه في الجنس، وعلم في الشخص إذا كان لم يحط علماً بجميع نسخ الكتب المتقدمة، وما في النبوات كلها فلا سبيل لأحد من أهل الكتاب أن يعلم انتفاء ذكر محمد في كل نسخة بكل كتاب من كتب الأنبيآء إذ العلم بذلك متعذر، إن هذه النسخ الموجودة فيها ذكره في مواضع كثيرة قد ذكر قطعة منها في غير هذا الموضع. وما ينبغي أن يعلم أن أعظم ما كان عليه المشركون قبل محمد وفي مبعثه هو دعوى الشريك لله والولد، والقرآن مملؤة من تنزيه الله عن هذين، وتنزيهه عن المثل والولد يجمع كل التنزيه، فهذا في سورة الإخلاص.

وفي سورة الأنعام في مثل قوله: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بغيرِ علم سُبحانَهُ وَتَعَالى عَمّا يَصفُون﴾[1]. وفي سورة الاسراء ﴿وَقُلِ الحمدُ لله الذي لَم يتّخذ وَلَداً ولَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في المُلْكِ﴾[2] وفي سورة الكهف في أولها: ﴿وَيُنْذِرُ الذينَ قَالوا اتخَذَ الله وَلَداً﴾[3] وفي آخرها: ﴿أفَحَسب الّذينَ كَفَروا أنْ يَتخِذُوا عبَادِي من دُوني أولياء إنا اعتدنا جهنمَ للكافرينَ نُزُلاً﴾[4] وفي مريم تنزيهه عن الولد في أول السورة وآخرها ظاهر، وعن الشريك في مثل قصة إبراهيم وفي تنزيل وغير ذلك، وفي الأنبيآء تنزيهه عن الشريك والولد، وكذلك في المؤمنين: ﴿ما اتخذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كانَ معَهُ من إلَه﴾[5] وأول الفرقان: ﴿الذي لَهُ ملكُ السّمَواتِ والأرضِ وِلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في المُلكِ﴾[6] وأما طه والشعراء مما بسط فيه قصة موسى. فالمقصود الأعظم بقصة موسى إثبات الصانع ورسالته إذ كان فرعون منكراً. ولهذا عظم ذكرها في القرآن بخلاف قصة غيره، فإن فيها الرد على المشركين المقرين بالصانع، ومن جعل له ولداً من المشركين وأهل الكتاب. ومذهب الفلاسفة الملاحدة دائر بين التعطيل وبين الشرك والولادة كما يقولونه في الإيجاب الذاتي، فإن أحد أنواع الولادة وهم ينكرون معاد الأبدان، وقد قرن بين هذا وهذا في الكتاب والسنة في مثل قوله: ﴿وَيَقُولُ الإنسانُ أإذا متُّ لَسَوفَ أُخْرَجُ حَيّاً، أوَلاَ يَذْكُرُ الإنْسَانُ إنّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيئاً﴾[7]. إلى قوله: ﴿وَقَالوا اتخذَ الرَّحمٰنُ وَلَداً﴾. وهذه في سورة مريم المتضمنة خطاب النصارى ومشركي العرب. لأن الفلاسفة داخلون فيهم فإن اليونان اختلطوا بالروم فكان فيها خطاب هؤلاء وهؤلاء، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى «شَتَمَني ابنُ آدَمَ

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٠.
(٢) سورة الاسراء: الآية ١١١.
(٣) سورة الكهف: الآية ٤.
(٤) سورة الكهف: الآية ١٠١.
(٥) سورة المؤمنون: الآية ٩١.
(٦) سورة الفرقان: الآية ٢.
(٧) سورة مريم: الآيتان ٦٦، ٦٧.

وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ذٰلِكَ، وَكَذَّبَني ابن آدم وما ينبغي لهُ ذلك، فأما شَتْمهُ إياي فَقَولُهُ إني اتخذتُ وَلَداً، وأنا الأحدُ الصَّمَدُ لم ألدْ ولم أولد وَلَمْ يَكُنْ لي كُفواً أحد. وأما تكذيبه إياي فقوله لن يُعيدني كما بَدَأني وَلَيْسَ أول الخَلقِ بأَهْوَنَ عَلَيَّ من أعادتهُ» رواه البخاري عن ابن عباس.

ولما كان الشرك أكثر في بني آدم من القول بأن له ولداً كان تنزيهه عنه أكثر، وكلاهما يقتضي إثبات مثل ولد من بعض الوجوه، فإن الولد من جنس الوالد، ونظير له وكلاهما يستلزم الحاجة والفقر فيمتنع وجود قادر بنفسه، فالذي جعل شريكاً لو فرض مكافئاً لزم افتقار كل منهما وهو ممتنع، وإن كان غير مكافىء فهو مقهور. والوالد يتخذه المتخذ لحاجته إلى معاونته له كما يتخذ المال، فإن الولد إذا اشتد أعان والده، قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغَني لَهُ مَا في السمواتِ وَمَا في الأرضِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وقَالُوا اتخذَ الرَّحمٰنُ وَلَداً لقد جِئتُمْ شَيئاً إدًّا﴾ إلى قوله ﴿إن كُل مَن في السَّموَاتِ وَالأَرْضِ إلا آتِ الرَّحمٰنِ عَبداً﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَقَالوا اتخذَ الله ولداً سُبحانهُ بَل لَهُ مَا في السَّمواتِ وَالأرضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونْ﴾[3]. فإن كون المخلوق مملوكاً لخالقه وهو مفتقر إليه من كل وجه، والخالق غني عنه يناقض اتخاذ الولد، لأنه إنما يكون لحاجته إليه في حياته أو ليخلفه بعد موته، والرب غني عن كل ما سواه وكل ما سواه، فقير اليه، وهو الحي الذي لا يموت، والوالد في نفسه مفتقر الى ولد مخلوق لا حيلة له فيه، بخلاف من يشتري المملوك فإنه باختياره ملكه، ويمكنه ازالة ملكه فتعلقه به من جنس تعلقه بالأجانب، والولادة بغير اختيار الوالد. والرب يمتنع أن يحدث شيء بغير اختياره. واتخاذ الولد هو عوض عن الولادة لمن لم يحصل له، فهو أنقص في الولادة. ولهذا من قال بالإيجاب الذاتي بغير مشيئته وقدرته، فقوله من جنس قول القائلين بالولادة الحاصلة بغير الإختيار، بل قولهم شر من قول النصارى ومشركي العرب من بعض الوجوه، كما قد بسط الكلام على هذا في تفسير: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾[4] وغيره.

والمقصود أن الله قال لمحمد ﴿قُلْ مَا كُنتَ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾[5]. وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبلِهِ الرُّسُل﴾[6]. فبين أن هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال، فهو معتاد في الآدميين وإن كان قليلاً فيهم. وأما من جاءهم رسول ما يعرفون قبله رسولاً كقوم نوح، فهذا بمنزلة ما يبتديه الله من الأمور، وحينئذ فهو يأتي بما يختص به مما يعرفون أن الله صدقه في إرساله، فهذا يدل على النوع والشخص، وإن كانت آيات غيره تدل على

---

(١) سورة يونس: الآية ٦٨.
(٢) سورة مريم: الآية ٩٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ١١٦.
(٤) سورة الإخلاص: الآية ١.
(٥) سورة الأحقاف: الآية ٩.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

الشخص، إذ النوع قد عرف قبل هذا. فالمقصود أن آيته وبرهانه لا بد أن يكون مختصاً بهذا النوع، لا يجب أن يختص بواحد من النوع، ولا يجوز أن يوجد لغير النوع.

وقد قلنا: أن ما يأتي به أتباع الأنبيآء، من ذلك هو مختص بالنوع، فإنا نقول هذا لا يكون إلا لمن اتبع الأنبيآء فصار مختصاً بهم. وأما ما يوجد لغير الأنبيآء وأتباعهم فهذا هو الذي لا يدل على النبوة كخوارق السحرة والكهان.

وقد عرف الناس أن السحرة لهم خوارق. ولهذا كانوا إذا طعنوا في نبوة النبي واعتقدوا علمه قالوا هو ساحر، كما قال فرعون لموسى: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يريد أن يُخرِجَكُمْ من أَرْضِكم بسحرِهِ فَماذا تَأْمُرُونَ﴾[1] وقال للسحرة لما آمنوا: ﴿إِنَّهُ لكَبيرُكُم الذي عَلَّمَكم السِحرِ﴾[2] وَ﴿إِنَّ هَذَا لمَكرٌ مَكَرتُمُوهُ في المدينةِ لِتُخْرِجوا منها أهلها﴾[3].

كل هذا من كذب فرعون وكانوا يقولون: ﴿يَا أَيُّها السَاحِرُ ادعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[4] وكذلك المسيح قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عيسَى ابنُ مَريمَ يا بَني إسرائيلَ إني رَسولُ الله إليكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَينَ يَديَّ مِنَ التَوْرَاةِ وَمُبَشراً برَسُولٍ يَأتي من بَعدي اسمهُ أحمَدْ فَلَمّا جَاءَهُمْ بِالبَيّنَاتِ قَالُوا هَذا سحرٌ مُبينٌ﴾[5] وقال تعالى عن كفار العرب: ﴿وَإِنْ يَروا آيةً يُعرِضوُا وَيَقوُلُوا سحرٌ مُسْتَمِرٌ﴾[6].

وإن نسبوه إلى عدم العلم قالوا مجنون، كما قالوا عن نوح: ﴿مَجنُونٌ وَازدُجِر﴾ وقالوا عن موسى: ﴿إِنَّ رَسُولَكم الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُم لَمجْنُونٌ﴾ وقال عن مشركي العرب: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الّذينَ كفَرُوا لَيزلقُونَكَ بأبصَارِهِمْ لَمّا سَمِعُوا الذِّكرَ وَيَقولُونَ إِنَّهُ لمجنون﴾[7] وقد قال تعالى: ﴿مَا أتى الذينَ مِن قَبلِهِم مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا لَهُ سَاحِرٌ أو مجنُون أَتَوَاصَوا بِهِ هُمْ قَومٌ طَاغون﴾[8]. فالساحر أمر معتاد في بني آدم، كما أن النبوة فيهم، كما أن العقلاء معتادون في بني آدم والمجانين معتادون فيهم.

فإذا قالوا عن الشخص إنه مجنون، فإنه يعلم هل هو من العقلاء أو من المجانين بنفس ما يقوله ويفعله، وكذلك يعرف هل هو من جنس الأنبيآء أو من جنس السحرة، وكذلك لما قالوا عن محمد أنه شاعر فإن الشعراء جنس معروفون في الناس. وقالوا: إنه كاهن، وشبهة الشعر أن القرآن كلام موزون والشعر موزون، وشبهة الكهانة أن الكاهن يخبر ببعض الأمور الغائبة. فذكر

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٣٥.
(٢) سورة طه: الآية ٧١.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٢٣.
(٤) سورة الزخرف: الآية ٤٩.
(٥) سورة الصف: الآية ٤٩.
(٦) سورة القمر: الآية ٢.
(٧) سورة القلم: الآية ٥١.
(٨) سورة الذاريات: الآية ٥٢.

الله تعالى الفرق بين هذين وبين النبي فقال: ﴿هَل أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطين تَنَزَّلُ عَلى كُلِ أَفّاكٍ أثيمٍ يُلقُون السَّمْعَ وَأكثرَهُم كَاذِبون﴾[1] ثم قال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتّبعهُمُ الغَاوونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وَادٍ يَهِيمونَ وَأَنَّهُمْ يقُولُونَ مَا لاَ يَفعلونَ إلاَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالحَاتِ وَذَكَرُوا الله كَثيراً﴾[2]. ﴿وما عَلّمنَاهُ الشِعرَ وَمَا يَنبغي لَهُ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ وَقُرآنٌ مُبينٌ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بقَولِ شَاعِرٍ قَليلاً مَا تُؤمِنُونَ وَلاَ بِقَولِ كَاهِنٍ قَليلاً ما تَذكرُون تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِ العالَمينَ﴾[4]. ولهذا لما عرض الكفار على كبيرهم الوحيد أن يقولوا للناس هو شاعر ومجنون وساحر، وكاهن صار يبين لهم أن هذه أقوال فاسدة، وأن الفرق معروف بينه وبين هذه الأجناس.

فالمقصود أن هذ الأجناس كلها موجودة في الناس معتادة معروفة، وكل واحد منها يعرف بخواصه المستلزمة لها تعرف بها، وتلك الخواص خارقة لعادة غير الأنبيآء، وإن كانت معتادة للأنبيآء فهي لا توجد لغيرهم فهذا هذا والله أعلم.

[المعجزات وفعل الشياطين والكهنة]:

فإذا أتى مدعي النبوة بالأمر الخارق للعادة الذي لا يكون إلا لنبي لا يحصل مثله لساحر ولا كاهن ولا غيرهما كان دليلاً على نبوته، وكل من الساحر والكاهن يستعين بالشياطين، فإن الكهان تنزل عليهم الشياطين تخبرهم والسحرة تعلمهم الشياطين. قال تعالى: ﴿واتبعوا ما تَتْلُوا الشَيَاطِينُ عَلى مُلكِ سُليمانَ وَمَا كَفَرَ سُليمانُ وَلَكِنَ الشَياطينَ كَفَرُوا يُعَلِّمونَ النَّاسَ السِحرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَينِ بَبابلَ هَارُوتَ وَمَاروتَ وَمَا يُعلمانِ مِن أحدٍ حَتى يَقُولا إنّما نِحْنُ فِتنةٌ فَلاَ تَكفُر﴾[5] والساحر لا يتجاوز سحره الأمور المقدورة للشياطين كما تقدم بيانه، والساحر كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يُفلِحُ السَّاحِرُ حَيثُ أتى﴾[6] وقال تعالى: ﴿وَلَقد عَلِموا لَمَنْ اشتَرَاهُ مَا لَهُ في الآخِرةِ من خَلاَق﴾[7] فهم يعلمون أن السحر لا ينفع في الآخرة ولا يقرب إلى الله، وأن من اشتراه ما له في الآخرة من خلاق، فإن مبناه على الشرك والكذب، والظلم مقصود صاحبه الظلم والفواحش.

وهذا مما يعلم بصريح العقل أنه من السيئات. فالنبي لا يأمر به ولا يعمله يستعين على

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٢٣.
(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٢٤.
(٣) سورة يس: الآية ٦٩.
(٤) سورة الحاقة: الآية ٤١.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٠٢.
(٦) سورة طه: الآية ٦٩.
(٧) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

ذلك صاحبه بالشرك والكذب، وقد علم بصريح العقل مع ما تواتر عن الأنبيآء أنهم حرموا الشرك، فمتى كان الرجل يأمر بالشركِ وعبادة غير الله أو يستعين على مطالبه بهذا وبالكذب والفواحش والظلم علم قطعاً أنه من جنس السحرة لا من جنس الأنبيآء. وخوارق الأنبيآء لا يمكن غيرهم أن يعارضها، ولا يمكن أحداً إبطالها لا من جنسهم ولا من غير جنسهم. فإن الأنبيآء يصدق بعضهم بعضاً فلا يتصور أن نبياً يبطل معجزة آخر وإن أتى بنظيرها فهو يصدقه.

ومعجزة كل منهما آية له وللآخر أيضاً، كما أن معجزات أتباعهم آيات لهم بخلاف خوارق السحرة، فإنها إنما تدل على أن صاحبها يؤثر آثاراً غريبة مما هو فساد في العالم، ويسر بما يفعله من الشرك والكذب والظلم، ويستعين على ذلك بالشياطين، فمقصوده الظلم والفساد. والنبي مقصوده العدل والصلاح، وهذا يستعين بالشياطين، وهذا بالملائكة، وهذا يأمر بالتوحيد لله وعبادته وحده لا شريك به، وهذا إنما يستعين بالشرك وعبادة غير الله، وهذا يعظم إبليس وجنوده، وهذا يذم إبليس وجنوده، والإقرار بالملائكة والجن عام في بني آدم لم ينكر ذلك إلا شواذ من بعض الأمم. ولهذا قالت الأمم المكذبة: ﴿لَوْ شَاءَ الله لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ حتى قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون. قال قوم نوح: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَر مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ الله لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾[1] وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذ جَاءتهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بينِ أيديهم ومِنْ خَلفِهِم أَنْ لا تَعبُدوا إِلاَّ الله قَالُوا لَوْ شَاء ربُّنَا لأَنزل مَلائِكةً فَإِنَا بِمَا أُرْسِلتُمْ بِهِ كَافِرون﴾[2].

وفرعون وإن كان مظهراً لجحد الصانع فإنه ما قال: ﴿لَولا أُلقِي عليهِ أَسَاوِر مِن ذهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلائِكةُ مُقْتَرِنين﴾[3] إلا وقد سمع بذكر الملائكة إما معترفاً بهم وإما منكراً لهم، فذكر الملائكة والجن عام في الأمم. وليس في الأمم أمة تنكر ذلك إنكاراً عاماً، وإنما يوجد إنكار ذلك في بعضهم مثل من قد يتفلسف فينكرهم لعدم العلم لا للعلم بالعدم، فلا بد في آيات الأنبيآء من أن تكون مع كونها خارقة للعادة أمراً غير معتاد لغير الأنبيآء ليس مما يقدر عليه غير الأنبيآء لا بحيلة ولا عزيمة ولا استعانة بشياطين ولا غير ذلك.

ومن خصائص معجزات الأنبيآء أنه لا يمكن معارضتها، فإذا عجز النوع البشري غير الأنبيآء عن معارضتها كان ذلك أعظم دليل على اختصاصها بالأنبيآء بخلاف ما كان موجوداً لغيرها. فهذا لا يكون آية البتة. فأصل هذا أن يعرف وجود الأنبيآء في العالم وخصائصهم

(١) سورة المؤمنون: الآية ٢٤.
(٢) سورة فصلت: الآية ١٤.
(٣) سورة الزخرف: الآية ٥٣.

كما يعلم وجود السحرة وخصائصهم. ولهذا من لم يكن عارفاً بانبيآء من فلاسفة اليونان والهند وغيرهم لم يكن له فيهم كلام يعرف كما لم يعرف لأرسطو وأتباعه فيهم كلام يعرف، بل غاية من أراد أن يتكلم في ذلك كالفارابي وغيره أن يقرروا إمكان النبوة على أصلهم احتجوا بأن مبدأ الطب ومبدأ النجوم ونحو ذلك كان من الأنبيآء لكون المعارف المعتادة لا تنهض بذلك. وهذا إنما يدل على اختصاص من أتى بذلك بنوع من العلم، وهذا لا ينكره عاقل.

وعلى هذا بنى إبن سينا أمر النبوة أنها من قوى النفس، وقوى النفوس متفاوتة، وكل هذا من لا يعرف النبوة بل هو أجنبي عنها وهو أنقص ممن أراد أن يقرر أن في الدنيا فقهاء وأطباء وهو لم يعرف غير الشعراء، فاستدل بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والأطباء، بل هذا المثال أقرب، فإن النبوة عن غير الأنبيآء أعظم من بعد الفقيه والطبيب عن الشاعر، ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة، ورأوا ذكر الأنبيآء قد شاع فأرادوا تخريج ذلك على أصول قوم لم يعرفوا.

فإن قيل: موسى وغيره كانوا موجودين قبل أرسطو، فإن أرسطو كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة. وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعثنَا في كُلِ أمةٍ رَسولاً أن اعبدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَاغوت فَمنهُمْ مَن هَدَى الله وَمِنْهُمْ مَنْ حَقّتْ عَلَيْهِ الضَلالةُ فَسِيرُوا في الأرضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عاقبةُ المُكَذِّبين﴾[1] وقال: ﴿إنّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحقِ بَشيراً وَنَذِيراً وإن مِن أمةٍ إلاَّ خَلا فيها نَذير﴾[2] فهذا يبين أن كل أمة قد جاءها رسول فكيف لم يعرف هؤلاء الرسل؟ قلت عن هذا جوابان:

أحدهما: أن كثيراً من هؤلاء لم يعرفوا الرسل كما قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقّتْ عَلَيْهِ الضَلاَلَةُ فسيرُوا في الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيف كَان عَاقِبَةُ المُكذِبين﴾[3] فلم تبق أخبار الرسول وأقواله معروفة عندهم.

الثاني: أنه قال تعالى: ﴿تَالله لَقَدْ أَرْسَلْنا إلى أُمم من قَبْلك فَزَيَّن لهُم الشيْطانُ أعمَالَهُمْ فَهو وليُّهُمْ اليَوم﴾[4] فإذا كان الشيطان قد زين لهم أعمالهم كان في هؤلاء من درست أخبار الأنبيآء عندهم فلم يعرفوها، وأرسطو لم يأت إلى أرض الشام. ويقال: إن الذين كانوا قبله كانوا يعرفون الأنبيآء، لكن المعرفة لا تنفع كمعرفة قريش كانوا قد سمعوا بموسى وعيسى وإبراهيم سماعاً من غير معرفة بأحوالهم، وأيضاً فهم وأمثالهم المشاؤون أدركوا الإسلام وهم من أكفر الناس بما جاءت به الرسل، اما أنهم لا يطلبون معرفة أخبارهم وما سمعوه حرفوه أو حملوه على أصولهم.

---

(١) سورة النحل: الآية ٣٦.
(٢) سورة فاطر: الآية ٢٤.
(٣) سورة النحل: الآية ٣٦.
(٤) سورة النحل: الآية ٦٣.

وكثير من المتفلسفة هم من هؤلاء، فإذا كان هذا حال هؤلاء في ديار الإسلام فما ظن بمن كان في بلاد لا تعرف فيها شريعة نبي.

بل طريق معرفة الأنبيآء كطريق معرفة نوع من الآدميين خصهم الله بخصائص، يعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم كما يعرف الأطباء والفقهاء. ولهذا إنما يقرر الرب تعالى في القرآن أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع في العالم من قصة نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، وشعيب ولوط، وإبراهيم وموسى وغيرهم، فيذكر وجود هؤلاء وإن قوماً صدقوهم وقوماً كذبوهم. ويبين حال من صدقهم، وحال من كذبهم فيعلم بالإضطرار حينئذ ثبوت هؤلاء، ويتبين وجود آثارهم في الأرض، فمن لم يكن رأى في بلدة آثارهم فليسر في الأرض، ولينظر آثارهم وليسمع أخبارهم المتواترة. يقول الله تعالى: ﴿وإن يُكذِبُوك فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبلهم قَومُ نُوح وعَاد وثمودُ وقَومُ إبراهيم وقَومُ لوط وأصحابُ مَدين وكُذِّب مُوسى فأمليتُ للكافرين ثُمّ أخذتُهمْ فكيفَ كانَ نَكيرٌ فكأينْ من قَرْية أهلكناها وهي ظالمة فهي خَاوِيةٌ على عُروشِهَا وَبِئرٍ معطلة وَقَصْر مُشيد، أفلم يَسِيروا في الأرضِ فَتكونَ لهُمْ قُلوبٌ يَعْقِلونَ بهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعونَ بِهَا فإنها لاَ تَعمي الأبصَارُ وَلكِنْ تَعمى القُلوبُ التي في الصُدُورِ وَيَسْتَعْجِلونَكَ بالعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ وإنَّ يَوْماً عندَ رَبِّكَ كَألف سَنَة ممّا تَعدُون وكأين مِن قريَةٍ أَملَيتُ لهَا وَهيَ ظَالمةٌ ثُم أخَذتُهَا وَإليَّ المَصير﴾[1]. ولهذا قال مؤمن آل فرعون لما أراد إنذار قومه: ﴿يَا قوم إني أخَافُ عليكم مثلَ يَومِ الأحزَابِ مثلَ دَأبِ قَومِ نُوحٍ وَعَادٍ وثَمُودَ والذينَ مِنْ بَعدِهم وَمَا الله يُريدُ ظُلماً للعبادِ﴾[2].

ولهذا لما سمع ورقة بن نوفل والنجاشي وغيرهما القرآن قال ورقة بن نوفل: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى، وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، فكان عندهم علم بما جاء به موسى واعتبروا به، ولولا ذلك لم يعلموا هذا، وكذلك الجن لمّا سمعت القرآن ولُّوا إلى قومهم منذرين، قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

ولما اراد سبحانه تقرير جنس ما جاء به محمد قال: ﴿إنّا أرْسَلنَا إليكم رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكم كمَا أَرْسَلنَا إلى فِرْعَونَ رَسُولاً فعَصَى فِرْعَونُ الرَّسُلِ فَأخَذْنَاهُ أخْذاً وَبيلا﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إذْ قالُوا مَا أنزلَ الله عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيءٍ قُلْ مَنْ أنزلَ

(١) سورة الحج: الآيات ٤٢ ـ ٤٨.
(٢) سورة غافر: الآيتان ٣٠، ٣١.
(٣) سورة المزمل: الآيتان ١٥، ١٦.

الكتَابَ الذي جَاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً للنّاس تجعلونَه قِراطيسَ تُبدونهَا وَتُخفُونَ كَثيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعلموا أنتم وَلَا آباؤكُم قُلْ الله ثم ذَرْهُم في خَوْضِهِمْ يَلْعبونَ وَهَذَا كِتَابٌ أنزلنَاهُ مُبَارَكٌ مَصَدِّقُ الّذي بَينَ يَديهِ وَلِتُنْذِر أُمَّ القرى وَمَنْ حَولهَا﴾[1] فهو سبحانه يثبت وجود جنس الأنبيآء ابتداء كما في السور المكية حتى يثبت وجود هذا الجنس وسعادة من اتبعه وشقاء من خالفه، ثم نبوة عين هذا النبي تكون ظاهرة لأن الذي جاء به أكمل مما جاء به جميع الأنبيآء، فمن أقر بجنس الأنبيآء كان إقرار بنبوة محمد في غاية الظهور أبين مما أقر أن في الدنيا نحاة وأطباء وفقهاء، فإذا رأى نحو سيبويه وطب أبقراط وفقه الأئمة الأربعة ونحوهم كان إقراره بذلك من أبين الأمور. ولهذا كان من نازع من أهل الكتاب في نبوة محمد إما أن يكون لجهله بما جاء وهو الغالب على عامتهم، أو لعناده وهو حال طلاب الرياسة بالدين منهم. والعرب عرفوا ما جاء به محمد، فلما أقروا بجنس الأنبيآء لم يبق عندهم في محمد شك. وجميع ما يذكره الله تعالى في القرآن من قصص الأنبيآء يدل على نبوة محمد بطريق الأولى إذ كانوا من جنس واحد ونبوته أكمل فينبغي معرفة هذا، فإنه أصل عظيم. ولهذا جميع مشركي العرب آمنوا به لم يحتج أحد منهم أن تؤخذ منه جزية فإنهم لما عرفوا نبوته، وأنه لا بد من متابعته أو متابعة اليهود والنصارى عرفوا أن متابعته أولى.

ومن كان من أهل الكتاب بعضهم آمن به وبعضهم لم يؤمن جهلاً وعماداً، وهؤلاء كان عندهم كتاب ظنوا استغناءهم به فلم يستقرئوا أخبار محمد وما جاء به خالين من الهوى، بخلاف من لم يكن له كتاب، فإنه نظر في الأمرين نظر خال من الهوى، فعرف فضل ما جاء به محمد على ما جاء به غيره. ولهذا لا تكاد توجد أمة لا كتاب لها يعرض عليها دين المسلمين واليهود والنصارى إلا رجحت دين المسلمين كما يجري لأنواع الأمم التي لا كتاب لها، فأهل الكتاب مقرون بالجنس منازعون في العين. والمتفلسفة من اليونان والهند منازعون في وجود كمال الجنس، وإن أقروا ببعض صفات الأنبيآء فإنما أقروا منها بما لا يختص بالأنبيآء بل هو مشترك بينهم وبين غيرهم، فلم يؤمن هؤلاء بالأنبيآء البتة. هذا هو الذي يجب القطع به، ولهذا يذكرون معهم ذكر جنس الخارج عن أتباعهم فيقال: قالت الأنبيآء والفلاسفة، واتفقت الأنبيآء والفلاسفة، وكما يقال: المسلمون واليهود والنصارى، وقال أيضاً رضي الله عنه.

***

(١) سورة الأنعام: الآيتان ٩١، ٩٢.

فصل
نصر الله رسله

ومن آياته نصر الرسل على قومهم، وهذا على وجهين: تارة يكون بإهلاك الأمم وانجاء الرسل وأتباعهم، كقوم نوح وصالح وشعيب ولوط وموسى، ولهذا يقرن الله بين هذه القصص في سورة الأعراف وهود والشعراء ولا يذكر معها قصة إبراهيم، وإنما ذكر قصة إبراهيم في سورة الأنبيآء ومريم والعنكبوت والصافات، فإن هذ السور لم يقتصر فيها على ذكر من أهلك من الأمم، بل في سورة الأنبيآء كان المقصود ذكر الأنبيآء، وإن لم يذكر قومهم كما ذكر قصة داود وسليمان وأيوب، وذكر آخر الكل أن هذه أمتكم أمة واحدة وبدأ بقصة إبراهيم إذا كان المقصود ذكر إكرامه للأنبيآء قبل محمد وإبراهيم، أكرمهم على الله تعالى وهو خير البرية، وهو أب أكثرهم، إذ ليس هو أب نوح ولوط، لكن لوط من أتباعه وأيوب من ذريته بدليل قوله في سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِيتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيمانَ وَأَيوبَ﴾[1] وأما سورة مريم فذكر الله تعالى فيها إنعامه على الأنبيآء المذكورين فيها، فذكر فيها رحمته زكريا وهبته يحيى عليهما السلام وأنه ورث نبوته وغيرها من علم آل يعقوب وأنه آتاه الحكم صبياً، وذكر بدء خلق عيسى وما أعطاه الله تعالى من تعليم الكتاب وهو التوراة والنبوة، وأن الله تعالى جعله مباركاً أينما كان وغير ذلك، وذكر قصة إبراهيم وحسن خطابه لأبيه، وأن الله تعالى وهبه إسحاق ويعقوب نبيين ووهبه من رحمته وجعل له لسان صدق عليا، ثم ذكر موسى وأنه خصصه الله تعالى بالتقريب والتكليم ووهبه أخاه وغير ذلك، وذكر إسماعيل وأنه كان صادق الوعد وكأنه والله أعلم من ذلك أو أعظمه صدقه فيما وعد أباه من صبره عند الذبح فوفى بذلك.

وذكر إدريس وأن الله تعالى رفعه مكاناً علياً ثم قال: ﴿أولئكَ الذينَ أنعمَ الله علَيهم﴾[2] وأما سورة العنكبوت فإنه ذكر فيها إمتحانه للمؤمنين ونصره لهم وحاجتهم إلى الصبر والجهاد. وذكر فيها حسن العاقبة لمن صبر وعاقبة من كذب الرسل. فذكر قصة إبراهيم لأنها من النمط

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٤.

(٢) سورة مريم: الآية ٥٨.

الأول ونصرة الله له على قومه. وكذلك سورة الصافات قال فيها: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبلهم أكثر الأولينَ وَلَقَدْ أرسلنَا فيهم مُنذِرينَ فَانْظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُنذرين﴾[1] وهذا يقتضي أنها عاقبة رديئة، إما بكونهم غلبوا وذلوا، وإما بكونهم أهلكوا، ولهذا ذكر فيها قصة الياس ولم يذكرها في غيرها ولم يذكر هلاك قومه بل قال: ﴿فكذبُوه فَإنهم لَمُحضَرون إلا عِبَادَ الله المُخلصين﴾[2] والياس قد روى: أن الله تعالى رفعه، وهذا يقتضي عذابهم في الآخرة، فإن الياس لم يقم فيهم، والياس المعروف بعد موسى عليه السلام من بني إسرائيل، وبعد موسى لم يهلك المكذبين بعذاب الاستئصال، وبعد نوح عليه السلام لم يهلك جميع النوع، وقد بعث في كل أمة نذيراً والله تعالى لم يذكر قط عن قوم إبراهيم عليه السلام أنهم هلكوا كما ذكر ذلك عن غيرهم، بل ذكر أنهم ألقوه في النار، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأرادوا به كيداً فجعلهم الله الأسفلين الأخسرين، وفي هذا ظهور برهانه وآيته وأنه أظهره عليهم بالحجة والعلم، وأظهره أيضاً بالقدوة حيث أذلهم ونصره، وهذا من جنس المجاهد الذي هزم عدوه، وتلك من جنس المجاهد الذي قتل عدوه، وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم، بل هاجر وتركهم، وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين ظهراني قومهم حتى هلكوا، فلم يوجد في حق قوم إبراهيم سبب الهلاك، وهو إقامته فيهم، وإنتظار العذاب النازل، وهكذا محمد مع قومه لم يقم فيهم بل خرج عنهم حتى أظهره الله تعالى عليهم بعد ذلك.

ومحمد وإبراهيم أفضل الرسل فإنهم إذا علموا الدعوة حصل المقصود وقد يتوب منهم من يتوب بعد ذلك، كما تاب من قريش من تاب.

وأما حال إبراهيم عليه السلام فكانت إلى الرحمة أميل فم يسع في هلاك قومه لا بالدعاء ولا بالمقام ودوام إقامة الحجة عليهم. وقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ الذينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعودُنَّ في مِلَّتِنَا فَأوحى إليهم رَبُّهُم لَنُهلِكَنَّ الظَّالمينَ ولَنُسكِنَنَّكم الأرضَ مِنْ بَعدِهِمْ﴾[3] وكان كل قوم يطلبون هلاك نبيهم إلا عوقبوا وقوم إبراهيم أوصلوه إلى العذاب، لكن جعله الله عليه برداً وسلاماً. ولم يفعلوا بعد ذلك ما يستحقون به العذاب إذ الدنيا ليست دار الجزاء التام، وإنما فيها من الجزاء ما تحصل به الحكمة والمصلحة كما في العقوبات الشرعية، فمن أراد أعداؤه من أتباع الأنبيآء أن يهلكوه، فعصمه الله وجعل صورة الهلاك نعمة في حقه ولم يهلك أعداءه، بل أخزاهم ونصره، فهو أشبه بإبراهيم وإذا عصمه من كيدهم وأظهره حتى

(١) سورة الصافات: الآية ٧١.

(٢) سورة الصافات: الآية ١٢٧.

(٣) سورة إبراهيم: الآيتان ١٣، ١٤.

صارت الحرب بينه وبينهم سجالاً، ثم كانت العاقبة له فهو أشبه بحال محمد ﷺ فإن محمداً سيد الجميع، وهو خليل الله كما أن إبراهيم خليله، والخليلان هما أفضل الجميع، وفي طريقتهما من الرأفة والرحمة ما ليس في طريقة غيرهما ولم يذكر الله عن قوم إبراهيم ديناً غير الشرك وكذلك عن قوم نوح.

وأما عاد فذكر عنهم التجبر وعمارة الدنيا، وقوم صالح عليه السلام ذكر عنهم الإشتغال بالدنيا عن الدين، لم يذكر عنهم من التجبر ما ذكر عن عاد، وإنما أهلكهم لما عقروا الناقة، وأما أهل مدين فذكر عنهم الظلم في الأموال مع الشرك: ﴿قَالُوا يَا شُعَيبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَو أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾[1] وقوم لوط ذكر عنهم استحلال الفاحشة ولم يذكروا بالتوحيد بخلاف سائر الأمم، وهذا يدل على أنهم لم يكونوا مشركين، وإنما ذنبهم استحلال الفاحشة وتوابع ذلك، وكانت عقوبتهم أشد، إذ ليس في ذلك تدين بل شر يعلمون أنه شر. وهذه الأمور تدل على حكمة الرب وعقوبته لكل قوم بما يناسبهم، فإن قوم نوح أغرقهم إذ لم يكن فيهم خير يرجى.

***

(١) سورة هود: الآية ٨٧.

فصل
آيات الأنبيآء وبراهينهم

في آيات الأنبياء وبراهينهم: وهي الأدلة والعلامات المستلزمة لصدقهم، والدليل لا يكون إلا مستلزماً للمدلول عليه مختصاً به، لا يكون مشتركاً بينه وبين غيره. فإنه يلزم من تحققه تحقق المدلول، وإذا انتفى المدلول انتفي هو، فما يوجد مع وجود الشيء، ومع عدمه لا يكون عليه، بل الدليل ما لا يكون دليلاً عليه، بل الدليل ما لا يكون إلا مع وجوده، فما وجد مع النبوة تارة لم يكن دليلاً على النبوة، بل دليلها ما يلزم من وجوده وجودها. وهنا اضطرب الناس، فقيل دليلها جنس يختص بها وهو الخارق للعادة، فلا يجوز وجوده لغير نبي، لا ساحر، ولا كاهن، ولا ولي، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم كابن حزم وغيره. وقيل: بل الدليل هو الخارق للعادة بشرط الإحتجاج به على النبوة والتحدي بمثله، وهذا منتف في السحر والكرامة كما يقول ذلك من يقوله من متكلمي أهل الإثبات كالقاضيين أبي بكر وأبي يعلى وغيرهما.

وقد بسط القاضي أبو بكر الكلام في ذلك في كتابه المصنف في الفرق بين المعجزات، والكرامات، والحيل، والكهانات، والسحر، والنيرنجيات[1]. وهؤلاء جعلوا مجرد كونه للعادة هو الوصف المعتبر، وفرق بين أن يقال لا بد أن يكون خارقاً للعادة، وبين أن يقال كونه خارقاً للعادة هو المؤثر، فإن الأول يجعله شرطاً لا موجباً، والثاني يجعله موجباً. وفرق بين أن يقال العلم والبيان وقراءة القرآن لا يكون إلا من حي، وبين أن يقال كونه حياً يوجب أن يكون عالماً قارئاً. ومن هنا دخل الغلط على هؤلاء. وليس في الكتاب والسنة تعليق الحكم بهذا الوصف، بل ولا ذكر خرق العادة ولا لفظ المعجز. وإنما فيه آيات وبراهين ذلك يوجب اختصاصها بالأنبيآء. وأيضاً فقالوا في شرطها أن لا يقدر عليها إلا الله، لا تكون مقدورة للملائكة، ولا للجن، ولا للأنس، بأن يكون جنسها مما لا يقدر عليه إلا الله، كإحياء الموتى، وقلب العصا

(١) النيرج: أخذ تشبيه السحر، وليست بحقيقته، ولا كالسحر، إنما هو تشبيه وتلبيس.

حية، وإذا كانت من أفعال العباد لكنها خارقة للعادة، مثل حمل الجبال والقفز من المشرق إلى المغرب، والكلام المخلوق الذي يقدر على مثله البشر ففيه لهم قولان:

أحدهما: أن ذلك يصح أن يكون معجزة.

والثاني: أن المعجزة إنما هي أقدار المخلوق على ذلك، بأن يخلق فيه قدرة خارجة عن قدرته المعتادة، وهذا اختيار القاضي أبي بكر ومن اتبعه كالقاضي أبي يعلى، وظنوا أن هذا يوجب طرد قولهم أنها لا تكون مقدورة لغير الله، بخلاف القول الأول، فإنه تقع فيه شبهة إذ كان الجنس معتاداً، وإنما الخارق هو الكثير الخارج عن العادة، وهذا الفرق الذي ذكره ضعيف، فإنه إذا كان قادراً على اليسير، فخرق العادة في قدرته حتى جعله قادراً على الكثير، فجنس القدرة معتاد مثل جنس المقدور، وإنما خرقت العادة بقدرة خارجة عن العادة، كما خرقت بفعل خارج عن القدرة، وعنده أن خلق القدرة خلق لمقدورها، والقدرة عنده مع الفعل فلا فرق. وهذا القول وهو أن المعجزة لا تكون إلا مقدورة للرب لا للعباد، قول كثير من أهل الكلام من القدرية والمثبتة للقدر وغيرهم، ثم إنهم لما طولبوا بالدليل على أنه لا يجوز أن تقدر العباد على مثل إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى ونحو ذلك مما ذكروا أنه يمتنع أن يكون مقدوراً لغير الله، إعتمدوا في الدلالة على أن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده. فلو جاز أن يكون العبد قادراً على هذه الأمور، لوجب أن لا يخلو من ذلك ومن ضده، وهو العجز أو القدرة على ضد ذلك لفعل، كما يقولونه في فعل العبد إنه إذا لم يقدر على الفعل فلا بد أن يكون عاجزاً أو قادراً على ضده. هذا احتجاج من يقول القدرة مع الفعل والقدرة لا تصلح للضدين، كالأشعرية فيقولون: لا يخلو من القدرة أو العجز، فهذه مقدمة.

والمقدمة الثانية: نحن لا نحس من أنفسنا عجزاً عن ابراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى ونحو هذه الأمور لكنا غير قادرين عليها، ولا يجوز أن نقدر عليها. وهؤلاء يقولون: لا يكون الشيء عاجزاً إلا عما يصح أن يكون قادراً عليه، بخلاف ما لا يصح أن يكون قادراً عليه، فلا يصح أن يكون عاجزاً عنه. ولهذا قالوا لا ينبغي أن تسمى هذه معجزات لأن ذلك يقتضي أن الله أعجز العباد عنها، وإنما يعجز العباد عما يصح قدرتهم عليه. هذا كلام القاضي أبي بكر ومن وافقه.

وكلا المقدمتين دعوى مجردة لم يقم على واحدة منها حجة، فكيف يجوز أن يكون الفرق بين المعجزة وغيرها مبنياً على مثل هذا الكلام الذي ينازعه فيه أكثر العقلاء؟ ولو كان صحيحاً لم يفهم إلا بكلفة، ولا يفهمه إلا قليل من الناس، فكيف إذا كان باطلاً، والذين آمنوا بالرسل

لما رأوه وسمعوه من الآيات لم يتكلموا بمثل هذا الفرق بل ولا خطر بقلوبهم. ولهذا لما رأى المتأخرون ضعف هذا الفرق كأبي المعالي والرازي والآمدي وغيرهم حذفوا هذا القيد وهو كون المعجزة مما ينفرد الباري بالقدرة عليها وقالوا: كل حادث فهو مقدور للرب، وأفعال العباد هي أيضاً مقدورة للرب وهو خالقها، والعبد ليس خالقاً لفعله. فالإعتبار بكونها خارقة للعادة قد استدل بها على النبوة، وتحدى بمثلها، فلم يمكن أحداً معارضته هذه القيود الثلاثة وحذفوا ذلك القيد، وزعم القاضي أبو بكر أن يستدل به على أن المعجزات يمتنع دخولها تحت العباد لا يصح على أصول القدرية، وبسط القول في ذلك بكلام يصح بعضه دون بعض كعادته في أمثال ذلك، ثم جعل هذا الفرق هو الفرق بين المعجزات وبين السحر والحيل. فقال وأما على قولنا: إن المعجز لا يكون إلا من مقدورات القديم، ومما يستحيل دخوله ودخول مثله تحت قدر العباد، فإذا كان كذلك استحال أن يفعل أحد من الخلق شيئاً من معجزات الرسل، أو ما هو من جنسها، لأن المحتال إنما يحتال ويفعل ما يصح دخوله تحت قدرته دون ما يستحيل كونه مقدوراً له.

قال: وأما القائلون بأنه يجوز أن يكون في معجزات الرسل ما يدخل جنسه تحت قدر العباد، وإن لم يقدروا على كثيره، وما يخرق العادة منه فإنهم يقولون قد علمنا أنه لا حيلة ولا شيء من السحر يمكن أن يتوصل به الساحر والمشعبذ إلى فعل في السماء، ولا قفز من المشرق إلى المغرب، وقفز الفراسخ[1] الكثيرة، والمشي على الماء، وحمل الجبال الراسيات، هذا أمر لا يتم بحيلة محتال ولا سحر ساحر. وتكلم على أبطال قول من قال: إن السحر لا يكون إلا تخيلاً لا حقيقة له. وذكر أقوال العلماء والآثار عن الصحابة بأن الساحر يقتل بسحره، وقول أنه يقتل حداً عند أكثرهم وقصاصاً عند بعضهم.

[الفرق بين المعجزات والسحر:]

ثم قال: وهو لم يفرق بين الجنسين، بل يجوز أن يكون ما هو معجزة للرسول يظهر على يد الساحر، لكن قال: الفرق هو تحدي الرسول بالإتيان بمثله وتقريع مخالفه بتعذر مثله عليه، فمتى وجد الذي ينفرد الله بالقدرة عليه من غير تحد منه واحتجاج لنبوته بظهوره لم يكن معجزاً، وإذا كان كذلك خرج السحر عن أن يكون معجزاً ومشبهاً لآيات الأنبيآء، وكان ما يظهر عند فعل

(١) الفرسخ: السكون، والفرسخ من المسافة المعلومة في الأرض مأخوذ منه، والفرسخ ثلاثة أميال أو ستة، سمي بذلك لأن صاحبه إذا مشى قعد واستراح من ذلك كأنه سكن.

الساحر من جنس بعض معجزات الرسل، وما يفعله الله عند تحديهم به، غير أن الساحر إذا احتج بالسحر وادعى به النبوة أبطله الله بوجهين:

أحدهما: أن ينسيه عمل السحر أو لا يفعل عند سحره شيئاً في المسحور من موت أو سقم أو بغض. ولم يخلق فيه الصعود إلى جهة العلو والقدرة على الدخول في بقرة، فإذا منعه هذه الأسباب بطل السحر.

والثاني: أن الساحر تمكن معارضته، فإن أبواب السحر معلومة عند السحرة، فإذا تحدى ساحر بشيء يفعل عند سحره لم يلبث أن يجد خلقاً من السحرة يفعلون مثل فعله، ويعارضونه بأدق وأبلغ مما أورده. والرسول إذا ظهر عليه مثل ذلك وادعاه آية له قال لهم: هذا آيتي وحجتي، ودليل ذلك أنكم لا تقدرون على مثله ولا يفعله الله في وقتي هذا، ومع تحدي ومطالبتي بمثله عند سحر ساحر وفعل كاهن، وقد كان يظهر من سحرتكم وكهانكم وهي آية لا تظهر اليوم على أحد من الخلق، وإن دق سحره وعظم في الكهانة علمه، فإذا ظهر ذلك عليه وامتنع ظهور مثله على يد ساحر أو كاهن، مع أنه قد كان يظهر من قبل صار هذا خرق عادة البشر وعادة السحر والكهنة خاصة.

قال: ولم يبعد أن يقال هذه الآية أعظم من غيرها وأن لها فضل مزية، ذكر هذا بعد أن قال: فإن قال القائل: فإذا أجزتم أن يكون من عمل السحر ما يفعل الله عنده سقم الصحيح وموته ويفعل عنده بغض المحب وحب المبغض، وبغض الوطن والرد إليه من السفر، وضيق الصدر والعجز عن الوطء بالربط والشد الذي يعلمه السحرة والصعود في جهة العلو على خيط أو بعض الآلات في الفصل بين هذا وبين معجزات الرسل، وكيف ينفصل مع ذلك المعجزات من السحر، ويمكن الفرق بين النبي والساحر. أو ليس لو قال نبي مبعوث إني أصعد على هذا الخيط نحو السماء وأدخل جوف هذا البقرة وأخرج، وإني أفعل فعلاً أفرق به بين المرء وزوجه، وأفعل فعلاً أقتل به هذا الحي وأسقم هذا الصحيح، فهل كان يكون ذلك لو ظهر على يده آية ودليلاً على صدقه، وما الفصل إذاً بين السحر والمعجز، ثم قال في الجواب: يقال له: جواب هذا قريب، وذلك انّا قد بينا في صدر هذا الكتاب إن من حق المعجزات لا يكون معجزاً حتى يكون واقعاً من فعل الله على وجه خرق عادة البشر مع تحدي الرسول بالإتيان إلى آخر ما كتب.

قلت: هذا عمدة القوم، ولهذا طعن الناس في طريقهم وشنع عليهم ابن حزم وغيره، وذلك أن هذا الكلام مستدرك من وجوده. أحدها: أنه إذا جوز أن يكون ما ينفرد الرب بالقدرة عليه على قول يأتي به النبي تارة والساحر تارة، ولا فرق بينهما إلا دعوى النبوة والإستدلال به

والتحدي بالمثل، فلا حاجة إلى كونه مما انفرد الباري بالقدرة عليه، لا سيما وقد ظهر ضعف الفرق بين ما يمتنع قدرة العباد عليه وما لا يمتنع. ولهذا أعرض المتأخرون عن هذا القيد.

الوجه الثاني: وبه تنكشف حقيقة طريقهم إنه على هذا لم تتميز المعجزات بوصف تختص به، وإنما امتازت باقترانها بدعوة النبوة وهذا حقيقة قولهم وقد صرحوا به. فالدليل والبرهان إن استدل به كان دليلاً، وإن لم يستدل به لم يكن دليلاً، وإن اقترنت به الدعوى كان دليلاً، وإن لم تقترن به الدعوى لم يكن دليلاً عندهم، ولهذا لم يجعلوا دلالة المعجز دلالة عقلية، بل دلالة وضعية، كدلالة الألفاظ بالإصطلاح، وهذا مستدرك من وجوه. منها أن كون آيات الأنبيآء مساوية في الحد والحقيقة بسحر السحرة أمر معلوم الفساد بالإضطرار من دين الرسل.

الثاني: أن هذا من أعظم القدح في الأنبيآء إذا كانت آياتهم من جنس سحر السحرة وكهانة الكهان.

الثالث: أنه على هذا التقدير لا تبقى دلالة، فإن الدليل ما يستلزم المدلول ويختص به، فإذا كان مشتركاً بينه وبين غيره لم يبق دليلاً، فهؤلاء قدحوا في آيات الأنبيآء ولم يذكروا دليلاً على صدقهم.

الرابع أنه على هذا التقدير يمكن [للساحر أن يدعي][1] النبوة، وقوله: أنه عند ذلك يسلبه الله القدرة على السحر، أو يأتي بمن يعارضه دعوى مجردة، فإن المنازع يقول: لا نسلم انه إذا ادعى النبوة فلا بد أن يفعل الله ذلك لا سيما على أصله، وهو أن الله يجوز أن يفعل كل مقدور وهذا مقدور للرب، فيجوز أن يفعله، وادعى أن ما يخرق العادة من الأمور الطبيعية والطلسمات هي كالسحر. فقال: ولأجل ذلك لم تلتبس آيات الرسل بما يظهر من جذب حجر المغناطيس، وما يوجد عند كتب الطلسمات قال: وذلك أنه لو ابتدأ نبي بإظهار حجر المغناطيس لوجب أن يكون ذلك آية له، ولو أن أحداً أخذ هذا الحجر وخرج إلى بعض البلاد وادعى أنه آية له عند من لم يره، ولم يسمع به لوجب أن ينقضه الله عليه بوجهين:

أحدهما: أن يؤثر دواعي خلق من البشر إلى حمل جنس تلك الحجارة إلى ذلك البلد، وكذلك سبيل الزناد الذي يقدح النار وتعرفه العرب، وكذلك سبيل الطلسمات التي يقال أنها تنفي الذباب والبق والحيات.

---

(١) العبارة غير واضحة في الأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.

والوجه الآخر أن لا يفعل الله عند ذلك ما كان يفعله من قبل فيقال: هذه دعوى مجردة، ومما يوضح ذلك الوجه الخامس وهو أن جعل قدح الزناد وجذب حجر المغناطيس والطلسمات من جنس معجزات الأنبيآء، وأنه لو بعث نبي ابتداء، وجعل ذلك آية له جاز غلط عظيم وعدم علم بقدر معجزات الأنبيآء وآياتهم، وهذا إنما أتاهم حيث جعلوا جنس الخارق هو الآية كما فعلت المعتزلة، وأولئك كذبوا بوجود ذلك لغير الأنبيآء، وهؤلاء ما أمكنهم تكذيب ذلك لدلالة الشرع والأخبار المتوترة والعيان على وجود حوادث من هذا النوع، فجعلوا الفرق افتراق الدعوى والإستدلال والتحدي دون الخارق، ومعلوم أن ما ليس بدليل لا يصير دليلاً بدعوى المستدل أنه دليل وقد بسط الكلام في ذلك، وجوز أن تظهر المعجزات على يد كاذب إذا خلق الله مثلها على يد من يعارضه فعمدته سلامتها من المعارضة بالمثل، مع أن المثل عنده موجود، وآيات الأنبيآء لها أمثال كثيرة لغير الأنبيآء لكن يقول: أن من ادعى الإتيان فإما أن لا يظهرها الله على يديه وإما أن يقبض من يعارضه بمثلها هذا عمدة القوم، وليس فرقاً حقيقياً بين النبي والساحر، وإنما هو مجرد دعوى، هذا يظهر بالوجه السادس وهو أن من الناس من ادعى النبوة وكان كاذباً وظهرت على يده بعض هذه الخوارق، فلم يمنع منها ولم يعارضه أحد، بل عرف أن هذا الذي أتى به ليس من آيات الأنبيآء، وعرف كذبه بطرق متعددة كما في قصة الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب[1] والحارس الدمشقي وبابا الرومي وغير هؤلاء ممن ادعى النبوة. فقولهم: إن الكذاب لا يأتي بمثل هذا الجنس كما ادعوه.

الوجه السابع: أنه إنما أوجب أن لا يظهر الله الخوارق على يد الكذاب، لأن هذا يفضي إلى عجز الرب، وهذه عمدة الأشعري في أظهر قوليه، وهي المشهورة عند قدمائهم، وهي التي سلكها القاضي أبو يعلى ونحوه.

قال القاضي أبو بكر: فإن قال قائل من القدرية: فلم لا يجوز أن يظهر المعجزات على يد مدعي النبوة ليلبس بذلك على العباد ويضل به عن الدين وأنتم تجوزون خلقه الكفر في قلوب الكفار وإضلالهم في الفصل بين إضلالهم بهذا وبين إضلالهم بإظهار المعجزات على يد الكاذبين؟ قال: فيقال لمن سأل عن هذا من القدرية: الفصل بين الأمرين ظاهر معلوم، وقد نص القرآن والاخبار بأنه يضل ويهدي ويختم على القلوب والأسماع والأبصار، فأما مطالبتهم بالفرق بين إضلال العباد بهذه الضروب من الأفعال، وبين إضلالهم بإظهار المعجزات على أيدي الكذابين، فجوابه أنا لم نحل إضلالهم بهذا الضرب لأنه إضلال عن الدين، أو لقبحه من

(١) قتل لعنه الله في السنة الثانية عشرة للهجرة.

الله لو وقع، أو لاستحقاقه الذم عليه تعالى عن ذلك، أو لكونه ظالماً لهم بالتكليف مع هذا الفعل، كل ذلك باطل محال من تمويههم، وإنما أحلناه لأنه يوجب عجز القديم عن تمييز الصادق من الكاذب. وتعريفنا الفرق بين النبي والمتنبيء من جهة الدليل، إذ لا دليل في قول كل أحد أثبت النبوة على نبوة الرسل وصدقهم إلا ظهور أعلام المعجزة على أيديهم، ألا خبر من ظهرت المعجزة على يده عن نبوة آخر مرسل فهذا إجماع لا خلاف فيه، فلو أظهر الله على يد المتنبيء الكاذب ذلك لبطلت دلائل النبوة، وخرجت المعجزات عن كونها دلالة على صدق الرسول، ولوجب لذلك عجز القديم عن الدلالة على صدقهم، ولما لم يجز عجزه وارتفاع قدرته عن بعض المقدورات، لم يجز لذلك ظهور المعجزات على أيدي الكذابين، بخلاف خلق الكفر في قلوب الكافرين. قلت: هذا عمدة القوم والمتأخرون عرفوا ضعف هذا فلم يسلكوه كأبي المعالي والرازي وغيرهما بل سلكوا الجواب الآخر، وهو أن العلم بالصدق عند المعجز يحصل ضرورة فهو علم ضروري، وبيان ضعف هذا الجواب مع أنه يحتج به وقال [الجواب على][1] هذا من وجوه: أحدهما: أن يقال إن كان الأمر كما زعمتم فإنما يلزم العجز إذا كان خلق الدليل الدال على صدقهم جنسه لا يدل، بل جنسه يقع مع عدم النبوة ولم يبق عندكم جنس من الأدلة يخص النبوة فلم قلتم: إن تصديقهم والحال هذه ممكن ولا ينفعكم هنا الإستدلال بالإجماع ونحوه من الأدلة السمعية، لأن كلامكم مع منكري النبوات فيجب أن تقيموا عليهم كون المعجزات دليلاً على صدق النبي.

وأما من أقر بنبوتهم بطريق غير طريقكم فإنه لا يحتاج إلى كلامكم، فإذا قال لكم منكرو النبوة: لا نسلم إمكان طريق يدل على صدقهم لم يكن معكم ما يدل على ذلك، وقد أورد هذا السؤال وأجاب عنه بأنه يمكنه تصديقهم بالقول، والمعجزات تقوم مقام التصديق بالقول، بل التصديق بالفعل أوكد وضرب المثل بمدعي الوكالة إذا قال قم أو أقعد ففعل ذلك عند استشهاد وكيله، فإن العقلاء كلهم يعلمون أنه أقام تلك الأفعال مقام القول.

قلت: وهذا يعود إلى الإحتجاج بالطريقة الثانية، وهي العلم بالتصديق ضرورة، فلا حاجة إلى طريقة المعجزات. الثاني: أنه يمكن أن يخلق علماً ضرورياً بصدقهم، وقد سلم القاضي أبو بكر ذلك: لكن قال: إذا اضطررنا إلى العلم بصدق مدعي النبوة، وأنه أرْسله إلينا كان في ضمن هذا العلم اضطراره لنا إلى العلم بذاته، وإلى أنه قد أرسل مدعي النبوة، وإذا علمنا ذلك اضطراراً لم يكن للتكليف بالعلم بصدقه وجهاً، وخرجنا بذلك عن أن نكون مكلفين بالعلم بالدين، وهذا كلام يؤدي إلى خروجنا عن حد المحنة والتكليف، فيقال له: إذا حصل العلم

(١) وردت في الأصل: فهذا، ولعل الصواب ما أثبتناه.

الضروري بوجود الخالق وبصدق رسوله كان التكليف بالإقرار بالصانع وعبادته وحده لا شريك له[1] وبتصديق رسله وطاعة أمره، وهذا هو الذي أمرت به الرسل أمرت الخلق أن يعبدوا الله وحده، وأن يطيعوا رسله ولم يأمروا جميع الخلق بأن يكتسبوا علماً نظرياً بوجود الخالق وصدق رسله، لكن من جحد الحق أمروه بالإقرار به، وأقاموا الحجة عليه، وبينوا معاندته، وأنه جاحد للحق الذي يعرفه، وكذلك الرسول كانوا يعلمون أنه صادق ويكذبونه فليتدبر هذا الموضع فإنه موضع عظيم.

الوجه الثالث: أن يقال: نحن نسلم المعجزات تدل على الصدق وأنه لا يجوز إظهارها على يد الكاذب، لكن هو لأن الله منزه عن ذلك وأن حكمته تمنع ذلك، ولا يجوز عليه كل فعل ممكن، وأنتم مع تجويزكم عليه كل ممكن يلزمكم تجويز خلق المعجزة على يد الكاذب، فما علم بالعقل والإجماع من امتناع ظهورها على يد الكاذب يدل على فساد أصلكم.

الوجه الرابع: أن يقال لم قلتم أنه لا دليل على صدقهم إلا المعجزات، وما ذكرتم من الإجماع على ذلك لا يصح الإستدلال به لوجهين:

أحدهما: أنه لا إجماع في ذلك، بل كثير من الطوائف يقولون إن صدقهم بغير المعجزات.

الثاني: إنه لا يصح الإحتجاج بالإجماع في ذلك، فإن الإجماع إنما يثبت بعد ثبوت النبوة، والمقدمات التي يعلم بها النبوة لا يحتج عليها بالإجماع، وقولكم: لا دليل سوى المعجز مقدمة ممنوعة، وذكر عن الأشعري أنه ذكر جواباً آخر فقال: وأيضاً فإن قول القائل: ما أنكرتم من جواز إظهار المعجزات على أيدي الكذابين قول متناقض والله على كل شيء قدير. ولكن ما طالب السائل بإجازته محال لا تصح القدرة عليه ولا العجز عنه، لأنه بمنزلة كونه أظهر المعجزات على أيديهم، فإنه أوجب أنهم صادقون، لأن المعجز دليل على الصدق ومتضمن له، وقوله مع ذلك أنهم كاذبون نقض لقوله أنهم صادقون قد ظهرت المعجزات على أيديهم فوجب إحالة هذه المطالبة، وصار هذا بمثابة قول من قال: ما أنكرتم من صحة ظهور الأفعال المحكمة الدالة على علم فاعلها والمتضمنة لذلك من جهة الدليل من الجاهل بها في أنه قول باطل متناقض، فيجب إذا كان الأمر كذلك استحالة ظهور المعجزات على يد الكاذبين، واستحالة ثبوت قدرة قادر عليه وكيف يصح على هذا الجواب أن يقال ما أنكرتم وزعمتم أنه من

---

(١) وردت في الأصل: به، ولعل الصواب ما أثبتناه.

فعل المحال الذي لا يصح حدوثه، وتناول القدرة له هو من قبيل الجائز قياساً على صحة خلق الكفر وضروب الضلال التي يصح حدوثها وتناول القدرة لها.

قلت: هذا كلام صحيح إذا علم أنها دليل الصدق يستحيل وجوده بدون الصدق، والممتنع غير مقدور فيمتنع أن يظهر على أيدي الكاذبين ما يدل على صدقهم، لكن المطالب يقول: كيف يستقيم على أصلكم أن يكون ذلك دليل الصدق، وهو أمر حادث مقدور، وكل مقدور يصح عندكم أن يفعله الله ولو كان فيه من الفساد ما كان، فإنه عندكم لا ينزه عن فعل ممكن، ولا يقبح منه فعل فحينئذ إذا خلق على يد الكاذب مثل هذه الخوارق لم يكن ممتنعاً على أصلكم، وهي لا تدل على الصدق البتة على أصلكم، ويلزمكم إذا لم يكن دليل إلهي ألا يكون في المقدور دليل على صدق مدعي النبوة فيلزم أن الرب سبحانه لا يصدق أحداً ادعى النبوة وإذا قلتم هذا ممكن بل واقع ونحن نعلم صدق الصادق إذا ظهرت هذه الأعلام على يده ضرورة.

قيل: فهذا يوجب أن الرب لا يجوز عليه إظهارها على يد كاذب، وهذا فعل من الأفعال هو قادر عليه، وهو سبحانه لا يفعله، بل هو منزه عنه، فأنتم بين أمرين: إن قلتم لا يمكنه خلقها على يد الكاذب وكان ظهورها ممتنعاً فقد قلتم أنه لا يقدر على احداث حادث، قد فعل مثله، وهذا تصريح بعجزه، وأنتم قلتم فليست بدليل فلا يلزم عجزه فصارت دلالتها مستلزمة لعجزه على أصلكم، وإن قلتم يقدر لكنه لا يفعل فهذا حق وهو ينقض أصلكم.

وحقيقة الأمر أن نفس ما يدل على صدق الصادق بمجموعه امتنع أن يحصل للكاذب، وحصوله له ممتنع غير مقدور. وأما خلق مثل تلك الخارقة على يد الكاذب فهو ممكن، والله سبحانه وتعالى قادر عليه، لكنه لا يفعل لحكمته، كما أنه سبحانه يمتنع عليه أن يكذب أو يظلم، والمعجز تصديق وتصديق الكاذب هو منزه عنه، والدال على الصدق قصد الرب تصديق الصادق، وهذا القصد يمتنع حصوله للكاذب فيمتنع جعل من ليس برسول رسولاً، وجعل الكاذب صادقاً ويمتنع من الرب قصد المحال وهو غير مقدور، وهو إذا صدق الصادق بفعله علم بالإضطرار، والدليل أنه صدقه وهذا العلم يمتنع حصوله للكاذب، واستشهادكم بالعلم هو من هذا الباب، فأنتم تقولون أن الرب لا يخلق شيئاً لشيء، وحينئذ فلا يكون قاصداً لما في المخلوقات من الاحكام، فلا يكون الاحكام دالاً على العلم على أصلكم، فإن الاحكام إنما هو جعل الشيء محصلاً للمطلوب بحيث يجعل لأجل ذلك المطلوب، وهذا عندهم لا يجوز، فإثباته علمه وتصديق رسله مشروط بأن يفعل شيئاً لشيء، وهذا عندكم لا يجوز، فلهذا يقال: إنكم متناقضون والله سبحانه وتعالى أعلم.

الوجه الثامن: أن حقيقة الأمر على قول هؤلاء الذين جعلوا المعجزة الخارق مع التحدي أن المعجز في الحقيقة ليس إلا منع الناس من المعارضة بالمثل سواء كان المعجز في نفسه خارقاً، أو غير خارق وكثير مما يأتي به الساحر والكاهن أمر معتاد لهم، وهم يجوزون أن يكون آية للنبي، وإذا كان آية منع الله الساحر والكاهن من مثل ما كان يفعل أو قيض له من يعارضه، وقالوا: هذا أبلغ فإنه منع المعتاد، وكذلك عندهم إحدى نوعي المعجزات منعهم من الأفعال المعتادة وهو مأخذ من يقول بالصدفة، وإذا كان كذلك جاز أن يكون كل أمر كالأكل والشرب والقيام والقعود معجزة إذا منعهم أن يفعلوا كفعله، وحينئذ فلا معنى لكونها خارقاً، ولا لاختصاص الرب بالقدرة عليها، بل الإعتبار بمجرد عدم المعارضة، وهم يقرون بخلاف ذلك والله أعلم.

الوجه التاسع: أنه إذا كانت المعجزة هي مجموع دعوى الرسالة مع التحدي فلا حاجة إلى كونه خارقاً كما تقدم، ويجب إذا تحدى بالمثل أن يقول: فليأت بمثل القرآن من يدعي النبوة، فإن هذا هو المعجز عندهم، وإلا فالقرآن مجرداً ليس بمعجز فلا يطلب مثل القرآن إلا ممن يدعي النبوة، كما في الساحر والكاهن إذا ادعى النبوة سلبه الله ذلك أو قيض له من يعارضه، وإذا لم يدع النبوة جاز أن يظهر على يده مثل ما يظهر على يد النبي، فكذلك يلزمهم مثل هذا في القرآن وسائر المعجزات والله أعلم.

***

فصل
في أن الرسول لا بد أن يبين أصول الدين

وهي البراهين الدالة على أن ما يقوله حق من الخبر والأمر، فلا بد أن يكون قد بين الدلائل على صدقه في كل ما أخبر، ووجوب طاعته في كل ما أوجب وأمر، ومن أعظم أصول الضلال الإعراض عن بيان الرسول للأدلة والآيات والبراهين والحجج، فإن المعرضين عن هذا إما أن يصدقوه ويقبلوا قوله، ويؤمنوا به بلا دليل أصلاً ولا علم، وإما أن يستدلوا على ذلك بغير أدلته، فإن لم يكونوا عالمين بصدقة فهم ممن يقال له في قبره ما قولك في هذا الرجل الذي بعث فيكم، فأما المؤمن أو الموقنُ فيقول: هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه.

وأما المنافق أو المرتاب فيقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقيلين. وإن استدل على ذلك بغير الآيات والأدلة التي دعا بها الناس فهو مع كونه مبتدعاً لا بد أن يخطىء ويضل، فإن ظن الظان أنه بأدلة وبراهين خارجة عما جاء به تدل على ما جاء به فهو من جنس ظنه أنه يأتي بعبادات غير ما شرعه توصل إلى مقصوده، وهذا الظن وقع فيه طوائف من النظار الغالطين أصحاب الإستدلال والإعتبار والنظر، كما وقع في الظن الأول طوائف من العباد الغالطين أصحاب الإرادة والمحبة والزهد.

وقوله ﷺ في خطبته يوم الجمعة: «خيرُ الكَلامِ كَلامُ الله، وخَيْرُ الهدَى هَدي محمد، وَشَرُّ الأمورِ مُحدثاتُها، وَكُلُّ بِدعَةٍ ضَلالَةٍ». يتناول هذا وهذا، وقد أرى الله تعالى عباده الآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى تبين لهم أن ما قاله فهو حق، فإن أرباب العبادة والمحبة والإرادة والزهد الذين سلكوا غير ما أمروا به ضلوا كما ضلت النصارى ومبتدعة هذه الأمة من العباد وأرباب النظر والإستدلال الذين سلكوا غير دليله وبيانه أيضاً ضلوا قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مني هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا يَضِل وَلاَ يَشقى وَمَنْ أعرَضَ عَن ذِكري فَإِنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنْكاً ونحشُرُهُ

يَومَ القِيامَةِ أعمى قال رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَومَ تُنسَى﴾[1].

وفي الكلام المأثور عن الإمام أحمد: أصول الإسلام أربعة: دال ودليل ومبين ومستدل. فالدال هو الله، والدليل هو القرآن، والمبين هو الرسول. قال الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ للنَاسِ مَا نزل إليهم﴾. والمستدل هم أولو العلم، وأولو الألباب الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وقد ذكره ابن المنى عن أحمد وهو مذكور في العدة للقاضي أبي يعلى، وغيرها، أما أن أحمد قال له، أو قيل له فاستحسنه. ولهذا صار كثير من النظار يوجبون العلم والنظر والإستدلال وينهون عن التقليد، ويقول كثير منهم: أن إيمان المقلد لا يصح، أو أنه وإن صح، لكنه عاص بترك الإستدلال ثم النظر.

والإستدلال الذي يدعون إليه ويوجبونه ويجعلونه أول الواجبات وأصل العلم هو نظر واستدلال ابتدعوه ليس هو المشروع لا خبراً ولا أمراً، وهو استدلال فاسد لا يوصل إلى العلم، فإنهم جعلوا أصل العلم بالخالق هو الإستدلال على ذلك بحدوث الأجسام والإستدلال على حدوث الأجسام بأنها مستلزمة للأعراض لا يخلو عنها ولا ينفك منها، ثم استدلوا على حدوث الأعراض قالوا: فثبت أن الأجسام مستلزمة للحوادث لا يخلو عنها فلا تكون مثلها، ثم كثير منهم قالوا: وما لم يخل من الحوادث، أو ما لم يسبق الحوادث فهو حادث، وظن أن هذه مقدمة بديهية معلومة بالضرورة لا يطلب عليها دليل، وكان ذلك بسبب أن لفظ الحوادث يشعر بأن لها ابتداء كالحادث المعين والحوادث المحدودة، ولو قدرت ألف ألف ألف حادث، فإن الحوادث إذا جعلت مقدرة محدودة فلا بد أن يكون لها ابتداء، فإن ما لا ابتداء له ليس به حد معين ابتدأ منه إذ قيل لا ابتداء له بل هو قديم أزلي دائم، ومعلوم أن هذه الحوادث ما لم يسبقها فهو حادث، فإنه يكون أما معها وإما بعدها، وكثير منهم يفطن للفرق بين جنس الحوادث وبين الحوادث المحدودة، فالجنس مثل أن يقال: ما زالت الحوادث توجد شيئاً بعد شيء أو ما زال جنسها موجوداً، أو ما زال قادراً على أن يفعل قدرة يمكن معها اقتران المقدور بالقدرة لا تكون قدرة يمتنع معها المقدور، فإن هذه في الحقيقة ليست قدرة، ومثل أن يقال في المستقبل، لا بد أن الله يخلق شيئاً بعد شيء، ونعيم أهل الجنة دائم لا يزول، ولا ينفذ، وقد يقال في النوعين كلمات الله لا تنفذ ولا نهاية لها لا في الماضي، ولا في المستقبل ونحو ذلك. فالكلمة في دوام الجنس وبقائه، وأنه لا ينفد ولا ينقضي ولا يزول، ولا ابتداء له غير الكلام فيما يقدر محدوداً له

(١) سورة طه: الآيات ١٢٣ ـ ١٢٦.

ابتداء أو له ابتداء وانتهاء، فإن كثيراً من النظار من يقول جنس الحوادث إذا قدر له ابتداء وجب أن يكون له انتهاء، لأنه يمكن فرض تقدمه على ذلك الحد فيكون أكثر مما وجد، وما لا يتناهى لا يدخله التفاضل، فإنه ليس وراء عدم النهاية شيء أكثر منها، بخلاف ما لا ابتداء له ولا انتهاء، فإن هذا لا يكون شيء فوقه، فلا يفضي إلى التفاضل فيما لا ينتهي، وبسط هذا له موضع آخر. والمقصود هنا أن هؤلاء جعلوا هذا أصل دينهم وإيمانهم، وجعلوا النظر في هذا الدليل هو النظر الواجب على كل مكلف، وأنه من لم ينظر في هذا الدليل، فإما أنه لا يصح إيمانه فيكون كافراً على قول طائفة منهم، وإما أن يكون عاصياً على قول الآخرين، وإما أن يكون مقلداً لا علم له بدينه، لكنه ينفعه هذا التقليد ويصير به مؤمناً غير عاص.

والأقوال الثلاثة باطلة لأنها مفرعة على أصل باطل، وهو أن النظر الذي هو أصل الدين والإيمان، هو هذا النظر في هذا الدليل، فإن علماء المسلمين يعلمون بالإضطرار أن الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر، ولا بهذا الدليل لا عامة الخلق ولا خاصتهم، فامتنع أن يكون شرطاً في الإيمان والعلم، وقد شهد القرآن والرسول لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم، وأنهم عالمون بصدق الرسول ومما جاء به، وعالمون بالله وبأنه لا إله إلا الله، ولم يكن الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين كما قال تعالى: ﴿وَيَرى الذين أوتُوا العِلمَ الذي أُنزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقُّ ويَهْدي إلى صِراطِ العَزيزِ الحَميد﴾[1] وقال: ﴿شَهِدَ الله أنه لاَ إلَـهَ إلاَّ هُوَ وَالملائكَةُ وَأولـوُا العِلمِ قائماً بِالقِسْطِ﴾[2]. وقال: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أعمىَ﴾[3].

وقد وصف باليقين والهدى والبصيرة في غير موضع كقوله: ﴿وَبِالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وقوله: ﴿أولئكَ على هُدىً مِن رَبِّهِم﴾[4]. وقوله: ﴿قُلْ هَذهِ سَبيلي أدعُوا إلى الله عَلىَ بَصيرة أنَا وَمَنْ اتبعَني﴾[5] وأمثال ذلك.

فتبين أن هذا النظر والإستدلال الذي أوجبه، هؤلاء وجعلوه أصل الدين ليس مما أوجبه الله ورسوله، ولو قدر أنه صحيح في نفسه، وأن الرسول أخبر بصحته لم يلزم من ذلك وجوبه إذ قد يكون للمطلوب أدلة كثيرة، ولهذا طعن الرازي وأمثاله على أبي المعالي في قوله أنه لا يعلم حدوث العالم إلا بهذا الطريق، وقالوا: هب أنه يدل على حدوث العالم فمن أين يجب أن لا يكون ثم طريق آخر، وسلكوا هم طرقاً أخر، فلو كانت هذه الطريق صحيحة عقلاً، وقد

(١) سورة سبأ: الآية ٦.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨.
(٣) سورة الرعد: الآية ١٩.
(٤) سورة البقرة: الآية ٥.
(٥) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

شهد لها الرسول والمؤمنون الذين لا يجتمعون على ضلالة بأنها طريق صحيحة لم يتعين مع إمكان سلوك طرق أخرى، كما أنه في القرآن سور وآيات قد ثبت بالنص والإجماع أنها من آيات الله الدالة على الهدى. ومع هذا فإذا اهتدى الرجل بغيرها وقام بالواجب ومات ولم يعلم بها ولم يتمكن من سماعها لم يضره، كالآيات المكية التي اهتدى بها من آمن ومات في حياة النبي ﷺ قبل أن ينزل سائر القرآن، فالدليل يجب طرده لا يجب عكسه.

ولهذا أنكر كثير من العلماء على هؤلاء إيجاب سلوك هذه الطريق مع تسليمهم أنها صحيحة كالخطابي والقاضي إبي يعلى وابن عقيل وغيرهم، والأشعري نفسه أنكر على من أوجب سلوكها أيضاً في رسالته إلى أهل الثغر مع اعتقاده صحتها، واختصر منها طريقة ذكرها في أول كتابه المشهور المسمى باللُمع في الرد على أهل البدع، وقد اعتنى به أصحابه حتى شرحوه شروحاً كثيرة، والقاضي أبو بكر شرحه، ونقض كتاب عبد الجبار الذي صنفه في نقضه وسماه: نقض نقض اللمع، وأما أكابر أهل العلم من السلف والخلف فعلموا أنها طريقة باطلة في نفسها، مخالفة لصريح المعقول وصحيح المنقول، وأنه لا يحصل بها العلم بالصانع ولا بغير ذلك، بل يوجب سلوكها اعتقادات باطلة توجب مخالفة كثير مما جاء به الرسول من مخالفة صريح المعقول، كما أصاب من سلكها من الجهمية والمعتزلة والكلابية والكرامية ومن تبعهم من الطوائف، وإن لم يعرفوا غورها وحقيقتها، فإن أئمة هؤلاء الطوائف صار كل منهم يلتزم ما يراه لازماً له ليطردها، فيلتزم لوازم مخالفة للشرع والعقل، فيجيء الآخر فيرد عليه ويبين فساد ما التزمه هو لوازم أخر لطردها، فيقع أيضاً في مخالفة الشرع والعقل.

فالجهمية التزموا لأجلها نفي أسماء الله وصفاته إذ كانت الصفات أعراضاً تقوم بالموصوف، ولا يعقل موصوف بصفة إلا الجسم، فإذا اعتقدوا حدوثه اعتقدوا حدوث كل موصوف بصفة والرب تعالى قديم، فالتزموا نفي صفاته، وأسماؤه مستلزمة لصفاته فنفوا أسماءه الحسنى وصفاته العلى.

والمعتزلة استعظموا نفي الأسماء لما فيه من تكذيب القرآن تكذيباً ظاهر الخروج عن العقل والتناقض، فإنه لا بد من التمييز بين الرب وغيره بالقلب واللسان، فما لا يميز من غيره لا حقيقة له ولا إثبات، وهو حقيقة قول الجهمية، فإنهم لم يثبتوا في نفس الأمر شيئاً قديماً البتة، كما أن المتفلسفة الذين سلكوا مسلك الإمكان والوجوب، وجعلوا ذلك بدل الحادث والقديم لم يثبتوا واجباً بنفسه البتة، وظهر بهذا فساد عقلهم وعظيم جهلهم مع الكفر، وذلك أنه يشهد وجود السموات وغيرها، فهذه الأفلاك إن كانت قديمة واجبة فقد ثبت وجود الموجود القديم الواجب، وإن كانت ممكنة أو محدثة فلا بد لها من واجب قديم، فإن وجود الممكن بدون

الواجب، والمحدث بدون القديم، ممتنع في بداية العقول. فثبت وجود موجود قديم واجب نفسه على كل تقدير، فإذا كان ما ذكروه من نفي الصفات عن القديم والواجب يستلزم نفي القديم مطلقاً ونفي الواجب علم أنه باطل وقد بسط هذا في مواضع، وبين أن كل من نفى صفة مما أخبر به الرسول لزمه نفي جميع الصفات فلا يمكن القول بموجب أدلة العقول إلا مع القول بصدق الرسول فأدلة العقول مستلزمة لصدق الرسول، فلا يمكن مع عدم تصديقه القول بموجب العقول بل من كذبه فليس معه لا عقل ولا سمع كما أخبر الله تعالى عن أهل النار.

قال تعالى: ﴿كُلما أُلقِيَ فيهَا فَوجٌ سَأَلَهمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكمْ نَذيرٌ قَالوُا بَلى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِنْ شَيء إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ في ضَلاَلٍ كَبير، وقَالوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَو نَعْقِلُ مَا كُنَّا في أَصْحَابِ السَعير، فَاعْتَرَفُوا بذَنبهم فَسُحقاً لأَصْحَابِ السَعيرْ﴾[1] وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن المعتزلة لما رأوا الجهمية قد نفوا أسماء الله الحسنى إستعظموا ذلك، وأقروا بالاسماء، ولما رأوا هذه الطريق توجب نفي الصفات نفوا الصفات، فصاروا متناقضين، فإن إثبات حي عليم قدير حكيم سميع بصير بلا حياة، ولا علم ولا قدرة ولا حكمة ولا سمع ولا بصر، مكابرة للعقل كإثبات مصلٍ بلا صلاة، وصائم بلا صيام، وقائم بلا قيام، ونحو ذلك من الأسماء المشتقة كأسماء الفاعلين والصفات المعدولة عنها.

ولهذا ذكروا في أصول الفقه أن صدق الإسم المشتق كالحي والعليم لا ينفك عن صدق المشتق منه كالحياة والعلم. وذكروا النزاع مع من ذكروه من المعتزلة كأبي علي وأبي هاشم، فجاء ابن كلاب ومن اتبعه كالأشعري والقلانسي فقرروا أنه لا بد من إثبات الصفات متابعة للدليل السمعي والعقلي مع إثبات الأسماء، وقالوا ليست أعراضاً، لأن العرض لا يبقى زمانين، وصفات الرب باقية وسلكوا في هذا الفرق، وهو أن العرض لا يبقى زمانين مسلكاً أنكره عليهم جمهور العقلاء، وقالوا أنهم خالفوا الحس وضرورة العقل، هم موافقون لأولئك على صحة هذه الطريقة طريقة الأعراض قالوا: وهذه تنفي عن الله أن يقوم به حادث، وكل حادث فإنما يكون بمشيئته وقدرته، قالوا: فلا يتصف بشيء من هذه الأمور لا يتكلم بمشيئته وقدرته ولا يقوم به فعل اختياري يحصل بمشيئته وقدرته كخلق العالم وغيره، بل منهم من قال: لا يقوم به فعل، بل الخلق هو المخلوق كالأشعري ومن وافقه، ومنهم من قال: بل فعل الرب قديم أزلي، وهو من صفاته الأزلية، وهو قول قدماء الكلابية، وهو الذي ذكره أصحاب ابن خزيمة لما وقع بينه وبينهم بسبب هذا الأصل فكتبوا عقيدة اصطلحوا عليها، وفيها إثبات الفعل القديم الأزلي، وكان سبب

(١) سورة الملك: الآية ٨.

ذلك أنهم كانوا كلابية يقولون: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل كلامه المعين لازم لذاته أزلاً وأبداً.

وكان ابن خزيمة وغيره على القول المعروف للمسلمين وأهل السنة أن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وكان قد بلغه عن الإمام أحمد أنه كان يذم الكلابية، وأنه أمر بهجر الحارث المحاسبي[1] لما بلغه أنه على قول ابن كلاب، وكان يقول حذروا عن حارث الفقير، فإنه جهمي واشتهر هذا عن أحمد، وكان بنيسابور طائفة من الجهمية والمعتزلة ممن يقولون أن القرآن وغيره من كلام الله مخلوق، ويطلقون القول بأنه متكلم بمشيئته وقدرته، لكن مرادهم بذلك أنه يخلق كلاماً بائناً عنه، قائماً بغيره كسائر المخلوقات، وكان من هؤلاء من عرف أصل ابن كلاب فأراد التفريق بين ابن خزيمة وبين طائفة من أصحابه فأطلعه على حقيقة قولهم فنفر منه، وهم كانوا قد بنوا ذلك على أصل ابن كلاب واعتقدوا أنه لا تقوم به الحوادث بناء على هذه الطريقة طريقة الأعراض، وابن خزيمة شيخهم وهو الملقب بإمام الأئمة، وأكثر الناس معه، ولكن لا يفهمون حقيقة النزاع فاحتاجوا لذلك إلى ذكر عقيدة لا يقع فيها نزاع بين الكلابية وبين أهل الحديث والسنة، فذكروا فيها أن كلام الله غير مخلوق، وأنه لم يزل متكلماً، وأن فعله أيضاً غير مخلوق فالمفعول مخلوق، ونفس فعل الرب له قديم غير مخلوق، وهذا قول الحنفية وكثير من الحنبلية والشافعية والمالكية، وهو اختيار القاضي أبي يعلى في آخر عمره، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود التنبيه على افتراق الأمة بسبب هذه الطريقة، ولما عرف كثير من الناس باطن قول ابن كلاب، وأنه يقول أن الله لم يتكلم بالقرآن العربي، وأن كلامه شيء واحد هو معنى آية الكرسي، وآية الدين عرفوا ما فيه من مخالفة الشرع والعقل، فنفروا عنه وعرفوا أن هؤلاء يقولون إنه لا يتكلم بمشيئه وقدرته، فأنكروه، وكان ممن أنكر ذلك الكرامية[2] وغير الكرامية كأصحاب أبي معاذ التومني، وزهير البابي وداود بن على وطوائف، فصار كثير من هؤلاء يقولون أنه يتكلم بمشيئته وقدرته فأنكروه، لكن يراعي تلك الطريقة لاعتقاده صحتها فيقول: إنه لم يكن في الأزل متكلماً لأنه إذا كان لم يزل متكلماً بمشيئته لزم وجود حوادث لا تتناهى.

(١) هو الحارث بن أسد المحاسبي، صاحب المصنفات في التصرف والأحوال، روى عن يزيد بن هارون وغيره، قال ابن الأهدل: كان أحد الخمسة الجامعين بين العلمين في واحد هو والجنيد وأبو محمد وأبو العباس بن عطاء وعمرو بن عثمان المكي، وله مصنفات نفيسة في السلوك والأصول، توفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين (أنظر شذرات الذهب ٢/١٠٣).

(٢) وهم أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام، كان ممن يثبت الصفات، إلا أنه كان ينتهي فيها إلى التجسيم والتشبيه.

وأصل الطريقة أن هذا ممتنع فصار حقيقة قول هؤلاء أنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً فخالفوا قول السلف والأئمة، أنه لم يزل متكلماً إذا شاء وبسط هذه الأمور له موضع آخر.

والمقصود هنا أن كثيراً من أهل النظر صار ما يوجبونه من النظر والإستدلال ويجعلونه أصل الدين والإيمان، هو هذه الطريقة المبتعدة في الشرع المخالفة للعقل الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمها وذم أهلها، فذمهم للجهمية الذين ابتدعوا هذه الطريقة أولاً متواتر مشهور، قد صنف فيه مصنفات، وذمهم للكلام والمتكلمين مما عنى به أهل هذ الطريقة، كذم الشافعي لحفص الفرد الذي كان على قول ضرار بن عمرو[1]، وذم أحمد ابن حنبل لأبي عيسى محمد بن عيسى برغوث الذي كان على قول حسين النجار[2]، وذمهما وذم أبي يوسف ومالك وغيرهم لأمثال هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة.

وقد صنف في ذم الكلام وأهله مصنفات أيضاً وهو متناول لأهل هذه الطريقة قطعاً، فكان إيجاب النظر بهذا التفسير باطلاً قطعاً، بل هذا نظر فاسد يناقض الحق والإيمان، ولهذا صار من يسلك هذه الطريقة من حذاق الطوائف يتبين لهم فسادها، كما ذكر مثل ذلك أبو حامد الغزالي وأبو عبد الله الرازي وأمثالهما، ثم الذي يتبين له فسادها إذا لم يجد عند من يعرفه من المتكلمين في أصول الدين غيرها بقي حائراً مضطرباً، والقائلون بقدم العالم من الفلاسفة والملاحدة وغيرهم تبين لهم فسادها، فصار ذلك من أعظم حججهم على قولهم الباطل، فيبطلون قول هؤلاء أنه صار فاعلاً، أو فاعلاً ومتكلماً بمشيئته بعد أن لم يكن، ويثبتون وجوب دوام نوع الحوادث ويظنون أنهم إذا أبطلوا كلام أولئك المتكلمين بهذا حصل مقصودهم، وهم أضل وأجهل من أولئك، فإن أدلتهم لا توجب قدم شيء بعينه من العالم، بل كل ما سوى الله فهو محدث مخلوق كائن بعد أن لم يكن ودلائل كثيرة غير تلك الطريقة، وإن كان الفاعل لم يزل فاعلاً لما يشاء ومتكلماً بما يشاء، وصار كثير من أولئك إذا ظهر له فساد أصل أولئك المتكلمين المبتدعين وليس عنده إلا قولهم، وقول هؤلاء يميل إلى قول هؤلاء الملاحدة، ثم قد يبطن ذلك، وقد يظهر لمن يأمنه، وابتلى بهذا كثير من أهل النظر والعبادة والتصوف والتوحيد

(١) اتفق حفص وعمرو على القول أن الله عز وجل عالم قادر على معنى أنه ليس بجاهل ولا عاجز، وأثبتا لله ماهية لا يعلمها إلا هو، وقالا: أفعال العباد مخلوقة لله حقيقة والعبد يكتسبها حقيقة، ويروى عن ضرار أنه كان ينكر حرف عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ويقطع بأن الله تعالى لم ينزله.

(٢) وهو ممن وافق المعتزلة في نفي الصفات من العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر، ووافق الصفاتية في خلق الأعمال، ومن أقواله: الباريء تعالى يريد لنفسه كما هو عالم لنفسه، وقال: إن الله تعالى خالق لأعمال العباد خيرها وشرها، حسنها وقبحها والعهد مكتسب لها وغير ذلك من أقوال.

والعرفان، فأخذوا من نفي الصفات أن صانع العلم لا داخل العالم ولا خارجه، ومن قول هؤلاء أن العالم قديم، ولم يروا موجوداً سوى العالم فقالوا: أنه هو الله، وقالوا: هو الوجود المطلق والوجود واحد، وتكلموا في وحدة الوجود ليس هذا موضع بسطه. ثم لما ظهر أن كلامهم يخالف الشرع والعقل صاروا يقولون: يثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل ويقولون: القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا ومن أراد أن يحصل له هذا العلم اللدني الأعلى، فليترك العقل والنقل، وصار حقيقة قولهم الكفر بالله وبكتبه ورسله وباليوم الاخر من جنس قول الملاحدة الذين يظهرون التشيع، لكن أولئك لما كان ظاهر قولهم هو ذم الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم صارت وصمة الرفض تنفر عنهم خلقاً كثيراً لم يعرفوا باطن أمرهم، وهؤلاء صاروا ينتسبون إلى المعرفة والتوحيد واتباع شيوخ الطريق، كالفضيل وإبراهيم بن أدهم والتستري والجنيد، وسهل بن عبد الله.

وأمثال هؤلاء ممن له في الأمة لسان صدق، فاغتر بهؤلاء من لم يعرف باطن أمرهم، وهم في الحقيقة من أعظم خلق الله خلافاً لهؤلاء المشايخ السادة، ولمن هو أفضل منهم من السابقين الأولين والأنبيآء المرسلين، وكان من أسباب ذلك أن العبادة والتأله والمحبة ونحو ذلك مما يتكلم فيه شيوخ المعرفة والتصوف أمر معظم في القلوب، والرسل إنما بعثوا بدعاء الخلق إلى أن يعرفوا الله، ويكون أحب إليهم من كل ما سواه فيعبدوه ويألهوه، ولا يكون لهم معبود مألوه غيره.

وقد أنكر جمهور أولئك المتكلمين، أن يكون الله محبوباً، أو أنه يحب شيئاً أو يحبه أحد، وهذا هو الحقيقة إنكار لكونه إلهاً معبوداً، فإن الإله هو المألوه الذي يستحق أن يؤله ويعبد، والتأله والتعبد غاية الحب بغاية الذل، ولكن غلط كثير فظنوا أن الإلهية هي القدرة على الخلق، وأن الإله بمعنى الإله وأن العباد يألههم الله، لا أنهم هم يألهون الله، كما ذكر ذلك طائفة منهم الأشعري وغيره، وطائفة ثالثة لما رأت ما دل على أن الله يحب أن يكون محبوباً من أدلة الكتاب والسنة، وكلام السلف وشيوخ أهل المعرفة، صاروا يقرون بأنه محبوب لكنه هو نفسه لا يحب شيئاً إلا بمعنى المشيئة، وجميع الأشياء مرادة له فهي محبوبة له، وهذه طريقة كثير من أهل النظر والعبادة والحديث كأبي إسماعيل الأنصاري وأبي حامد الغزالي وأبي بكر بن العربي.

وحقيقة هذا القول: أن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضاه، وهذا هو المشهور من قول الأشعري وأصحابه، وقد ذكر أبو المعالي أنه أول من قال ذلك، وكذلك ذكر ابن عقيل أن أول من قال إن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان هو الأشعري وأصحابه، وهم قد يقولون لا يحبه ديناً ولا يرضاه ديناً كما يقولون لا يريده ديناً أي لا يريد أن يكون فاعله مأجوراً، وأما هو

نفسه فهو محبوب له كسائر المخلوقات، فإنها عندهم محبوبة له إذ كان ليس عندهم إلا إرادة واحدة شاملة لكل مخلوق، فكل مخلوق فهو عندهم محبوب مرضي.

وجماهير المسلمين يعرفون أن هذا القول معلوم الفساد بالضرورة من دين أهل الملل، وأن المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن الله لا يحب الشرك، ولا تكذيب الرسل، ولا يرضى ذلك، بل هو يبغض ذلك ويمقته ويكرهه، كما ذكر الله في سورة بني إسرائيل ما ذكره من المحرمات، ثم قال: كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً، وبسط هذه الأمور له مواضع أخر.

والمقصود هنا أن الذين أعرضوا عن طريق الرسول في العلم والعمل وقعوا في الضلال والزلل، وأن أولئك لما أوجبوا النظر الذي ابتدعوه صارت فروعه فاسدة إن من قالوا أن لم يسلكها كفر أو عصى، فقد عرف بالإضطرار من دين الإسلام أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يسلكوا طريقهم، وهم خير الأمة، وإن قالوا أن من ليس عنده علم ولا بصيرة بالإيمان، بل قاله تقليداً محضاً من غير معرفة يكون مؤمناً، فالكتاب والسنة يخالف ذلك. ولو أنهم سلكوا طريقة الرسول لحفظهم الله من هذا التناقض، فإن ما جاء به الرسول جاء من عند الله، وما ابتدعوه جاؤوا به من عند غير الله، وقد قال تعالى: ﴿ولَوْ كَان من عند غير الله لَوجَدوا فيهِ اختلافاً كَثيراً﴾[1]. وهؤلاء بنوا دينهم على النظر، والصوفية بنوا دينهم على الإرادة، وكلاهما لفظ مجمل يدخل فيه الحق والباطل، فالحق هو النظر الشرعي والإرادة الشرعية، فالنظر الشرعي هو النظر فيما بعث به الرسول من الآيات والهدى، كما قال: ﴿شَهْرُ رمضان الذي أُنزِل فيهِ القُرآنُ هُدىً للناسِ وبَيِّنَاتٍ من الهُدى والفُرقَان﴾[2]. والإرادة الشرعية إرادة ما أمر الله به ورسوله، والسماع الشرعي سماع ما أحب الله سماعه كالقرآن، والدليل الذي يستدل به هو الدليل الشرعي وهو الذي دل الله به عباده، وهداهم به إلى صراطٍ مستقيم، فإنه لما ظهرت البدع والتبس الحق بالباطل، صار اسم النظر والدليل والسماع والإرادة يطلق على ثلاثة أمور: منهم من يريد به البدعي دون الشرعي فيريدون بالدليل ما ابتدعوه من الأدلة الفاسدة والنظر فيها، ومن السماع والإرادة ما ابتدعوه من ابتاع ذوقهم ووجدهم وما تهواه أنفسهم، وسماع الشعر والغناء الذي يحرك هذا الوجد التابع لهذه الإرادة النفسانية التي مضمونها اتباع ما تهوى الأنفس بغير هدى من الله.

ومنهم من يريد مطلق الدليل والنظر ومطلق السماع والإرادة من غير تقييدها لا بشرعي

---

(١) سورة النساء: الآية ٨١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

ولا ببدعي، فهؤلاء يفسرون قوله: ﴿الذين يستمعون القول﴾. بمطلق القول الذي يدخل فيه القرآن والغناء ويستمعون إلى هذا وهذا، وأولئك يفسرون الإرادة، بمطلق المحبة للإله من غير تقييدها بشرعي ولا بدعي، ويجعلون الجميع من أهل الإرادة سواء عبد الله بما أمر الله به ورسوله من التوحيد وطاعة الرسول، أو كان عابداً للشيطان مشركاً عابداً بالبدع، وهؤلاء أوسطهم، وهم أحسن حالاً من الذين قيدوا ذلك بالبدعي.

وأما القسم الثالث: فهم صفوة الأمة وخيارها، المتبعون للرسول علماً وعملاً، يدعون إلى النظر والإستدلال والإعتبار بالآيات والأدلة والبراهين التي بعث الله بها رسوله، وتدبر القرآن وما فيه من البيان، ويدعون إلى المحبة والإرادة الشرعية، وهي محبة الله وحده وإرادة عبادته وحده لا شريك له بما أمر به على لسان رسوله، فهم لا يعبدون إلا الله ويعبدونه بما شرع وأمر، ويستمعون ما أحب استماعه وهو قوله الذي قال فيه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾[2] كما قال: ﴿واتبعُوا أحسن ما أنزل إليكُم من ربِّكُم﴾[3] وقال ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شيء مَوعظةً وتَفْصِيلاً لكُلِّ شَيءٍ، فخذهَا بقوةٍ وأمرْ قَومَك يَأخُذوا بأحْسَنهَا﴾[4].

والله سبحانه بين القدرة على الإبتداء كقوله: ﴿إِنْ كُنتُم فِي رَيْبٍ من البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ من تُرابٍ ثُم من نُطْفَةٍ ثُمَّ منْ عَلَقَةٍ ثمَّ منْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغير مُخلقةٍ لنُبيِّن لَكُمْ﴾[5]. ومثل قوله: ﴿ويقُولُ الإنسانُ أإذا مَا مت لَسَوْف أُخْرجُ حَيّاً، أولا يَذْكَرُ الإنسانُ أنا خَلَقْنَاهُ منْ قَبلُ ولَمْ يَكُ شَيئاً﴾ الآية[6]. ومثل قوله: ﴿وضَرب لَنَا مَثَلاً ونَسِي خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيي العِظَامَ وَهيَ رَميم قُل يُحيهَا الذي أنشأَهَا أوَلَ مَرةٍ وَهُوَ بِكُلِ خَلقٍ عَليم﴾[7] وغير ذلك.

فالإستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والإستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها وبينها وأرشد إليها، وهي عقلية، فإن نفس كون الإنسان حَادثاً بعد أن لم يكن، ومولوداً ومخلوقاً من نطفةٍ ثم من علقة، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول أو لم يخبر، لكن الرسول أمر أن يستدل به، ودل به وبينه واحتج به فهو دليل شرعي، لأن الشارع استدل به وأمر أن يستدل به، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته وكثير من المتنازعين في المعرفة، هل تحصل بالشرع أو بالعقل لا يسلكونه، وهو عقلي شرعي، وكذلك غيره من الأدلة التي في القرآن، مثل

---

(١) زيدت على الأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٢) سورة الزمر: الآية ١٨.
(٣) سورة الزمر: الآية ٥٥.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٤٥.
(٥) سورة الحج: الآية ٥.
(٦) سورة مريم: الآية ٦٦.
(٧) سورة يس: الآية ٧٨.

الإستدلال بالسحاب والمطر هو مذكور في القرآن في غير موضع، وهو عقلي شرعي كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَروا أنا نَسوقُ المَاءَ إلى الأرضِ الجُرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرعاً تَأكُلُ مِنهُ أنعامهم وأنفُسُهم أفَلَا يُبْصِرون﴾[1]. فهذا مرئي بالعيون. وقال تعالى: ﴿سَنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفُسِهِم حَتّى يَتَبَيّن لهُمْ أنّهُ الحَقُّ﴾[2]. ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكف بِرَبِكَ أنهُ عَلى كُلِّ شيءٍ شَهيدٍ﴾[3].

فالآيات التي يريها الناس حتى يعلموا أن القرآن حق هي آيات عقلية يستدل بها العقل على أن القرآن حق، وهي شرعية دل عليها وأمر بها، والقرآن مملوء من ذكر الآيات العقلية التي يستدل بها العقل، وهي شرعية لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها، ولكن كثير من الناس لا يسمى دليلاً شرعياً إلا ما دل بمجرد خبر الرسول، وهو اصطلاح قاصر، ولهذا يجعلون أصول الفقه هو لبيان الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع، والكتاب يريدون به أن يعلم مراد الرسول فقط، والمقصود من أصول الفقه هو معرفة الأحكام الشرعية العملية، فيجعلون الأدلة الشرعية ما دلت على الأحكام العملية فقط، ويخرجون ما دل بإخبار الرسول عن أن يكون شرعياً فضلاً عما دل بإرشاده وتعليمه، ولكن قد يسمون هذا دليلاً سمعياً، ولا يسمونه شرعياً، وهو اصطلاح قاصر، والأحكام العملية أكثر الناس يقولون أنها تعمل بالعقل أيضاً، وأن العقل قد يعرف الحسن والقبح، فتكون الأدلة العقلية دالة على الأحكام العملية أيضاً، ويجوز أن تسمى شرعية، لأن الشرع قررها ووافقها أو دل عليها وأرشد إليها، كما قيل مثل ذلك في المطالب الخبرية، كإثبات الرب ووحدانيته وصدق رسله وقدرته على المعاد أن الشرع دل عليها وأرشد إليها. وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا: أن الأشعري بنى أصول الدين في اللمع ورسالة الثغر على كون الإنسان مخلوقاً محدثاً فلا بد له من محدث، لكون هذا الدليل مذكور في القرآن، فيكون شرعياً عقلياً، لكنه في نفس الأمر سلك في ذلك طريقة الجهمية بعينها، وهو الإستدلال على حدوث الإنسان بأنه مركب من الجواهر الفردة فلم يخل من الحوادث، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث، فجعل العلم بكون الإنسان محدثاً وبكون غيره من الأجسام المشهودة محدثاً، إنما يعلم بهذه الطريقة وهو أنه مؤلف من الجواهر المفردة، وهي لا تخلو من اجتماع وافتراق، وتلك أعراض حادثة، وما لم ينفك من الحوادث فهو محدث، وهذه الطريقة أصل ضلال هؤلاء، فإنهم أنكروا

---

(١) سورة السجدة: الآية ٢٧.

(٢) سورة السجدة: الآية ٥٣.

(٣) سورة السجدة: الآية ٥٣.

المعلوم بالحس والمشاهدة والضرورة العقلية من حدوث المحدّثات المشهود حدوثها، وادعوا أنه إنما نشهد حدوث أعراض لا حدوث أعيان مع تنازعهم في الأعراض، ثم قالوا: والأجسام لا تخلو من الأعراض، وهذا صحيح، ثم قالوا: والأعراض حادثة، فاضطربوا هنا ثم قالوا: وما لم يخل من الحوادث فهو حادث. وهذا أصل دينهم، وهو أصل فاسد مخالف للسمع والعقل، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والمتفلسفة أشد مخالفة للعقل والسمع منهم، لكنهم عرفوا فساد طريقتهم هذه العقلية فاستطالوا عليهم بذلك، وسلكوا ما هو أفسد منها، كطريقة الإمكان والوجوب كما قد بسط في موضع آخر، فلبسوا هذا الباطل بالحق الذي جاء به الرسول وهو الإستدلال بحدوث الإنسان وغيره من المحدثات التي يشهد حدوثها، فصار في كلامهم حق وباطل من جنس ما أحدثه أهل الكتاب، حيث لبسوا الحق بالباطل، واحتاجوا في ذلك إلى كتمان الحق الذي جاء به الرسول الذي يخالف ما أحدثوه، فصاروا يكرهون ظهور ما جاء به الرسول، بل يمنعون عن قراءة الأحاديث وسماعها وقراءة كلام السلف وسماعه، ومنهم من يكره قراءة القرآن وحفظه، والذين لا يقدرون على المنع من ذلك صاروا يقرأون حروفه ولا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله، بل إن اشتغلوا بعلومه اشتغلوا بتفسير من يشركهم في بدعتهم ممن يحرفون [كلام][1] الله عن مواضعه، والأصل العقلي الحسي الذي به فارقوا العقل، والسمع هو حدوث ما يشهد مثل حدوث الزرع والثمار، وحدوث الإنسان وغيره من الحيوان، وحدوث السحاب والمطر ونحو ذلك من الأعيان القائمة بنفسها، غير حدوث الأعراض، كالحركة والحرارة والبرودة والضوء والظلمة وغير ذلك، بل تلك الأعيان التي يسمونها أجساماً وجواهر هي حادثة، فإنه معلوم أن الإنسان مخلوق من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وأن الثمار تخلق من الأشجار، وأن الزرع تخلق من الحب، والشجر تخلق من النوى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الله فَالِقُ الحَبِّ والنَوى يُخْرِجُ الحَي مِن المَيْتِ ومُخْرِجُ المَيت مِن الحَيِ ذلكم الله فَأنّى تُؤْفَكُون. فَالِقُ الإصْبَاحِ وجَعلَ الليل سَكناً والشَمسَ والقمَرَ حُسباناً ذلك تَقْدِيرُ العزيز العَليم. وهُو الذي جَعَل لكم النُجُوم لتَهتَدُوا بهَا في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحرِ قَدْ فَصَّلنَا الآياتِ لَقَومٍ يعلمون. وهُو الذي أنشَأكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ فمستَقرٌ ومُسْتَوْدعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآياتَ لِقَوْمٍ يَفْقَهُون. وهُو الذي أنزل مِن السَماءِ مَاءً فأخْرَجْنَا بِهِ نَباتُ كُل شيءٍ فَأخْرجنَا مِنهُ خضِراً نخرج مِنْهُ حَبّاً مُتَراكِباً ومِن النَخْلِ من طَلْعِهَا قَنوان دانية وجَنّاتٍ مِنْ أعنَابٍ والزيتون والرُمّان مُشْتَبِهاً

(١) وردت في الأصل: الكلم كلم، ولعل الصواب ما أثبتناه.

وغَيْـرِ مُتَشَابِـهٍ انظُروا إلى ثمـرِهِ إذا أثْمَر وَيَنْعـهِ إنَّ في ذلِكم لآيَـاتٍ لِقَـومٍ يُؤْمِنُـونَ﴾[1]. فهـذا الإنسان والشجر والزرع المخلوق من مادة قد خلق منها عين قائمة بنفسها.

وهم يقولون: إنما هي من الجسم القائم بنفسه، وهو الجوهر العام في اصطلاحهم الـذين يقولون أنـه مركب من الجـواهر المفـردة. وهل الـذي خلق من المادة هـو أعيان أم لم يخلق إلا أعراض قائمة بغيرها، وأما الأعيان فهي الجواهر المفردة، وتلك منهـا شيء في هذه الحـوادث، ولكن أحدث فيها جمـع وتفريق، فكان خلق الإنسان وغيره هو تركيب تلك الجـواهر، وإحـداث هـذا التركيب لا إحـداث تلك الجواهـر. وأما حـدوث تلك الجواهـر فإنمـا يعلم بـالإستـدلال، فيستدل عليه بأن الجوهر التي تركبت منه هذه الأجسـام لا تخلو من اجتماع وافتـراق، والإجتماع والإفتراق حادث، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث فهذه طـريق هؤلاء الجهمية أهـل الكلام المحدث.

وأما جمهور العقلاء فيقولون: بل نحن نعلم حدوث هذه الأعيان القائمة بنفسها، لا نقـول أنـه لم يحدث إلا عـرض، فإن هـذا القول يقتضي أن تلك الجـواهر التي ركب منهـا آدم بـاقيـة لم يزل في كل آدمي منها شيء، وهذا مكابرة، فـإن بدن آدم لا يحتمـل هذا كله، لا يحتمـل أن يكون فيه جـواهر بعـدد ذريته، لا سيمـا وكل آدمي إنمـا خلق من مني أبويـه، وهم يقولـون تلك الجواهر التي في مني الأبوين باقية بأعينها في الولد، وهم يقولون أن الجواهـر لا تفنى بل تنتقـل من حال إلى حال.

وكثير منهم يقولون أنها مستغنية عن الرب بعد أن خلقها، وتحيروا فيما إذا أراد أن يفنيهـا، كيف يفنيها؟ كما قد ذكر في غير هذا المـوضـع. إذ المقصود هنـا التنبيه على أن أصـل الأصول معـرفة حـدوث الشيء من الشيء كحـدوث الإنسـان من المني، فهؤلاء ظنـوا أنـه لا يحـدث إلا الأعراض. ولهذا لما ذكر أبو عبد الله بن الخطيب الرازي في كتبـه الكبار والصغـار الطرق الـدالة على إثبات الصانـع لم يذكر طريقاً صحيحاً، وليس في كتبه وكتب أمثـاله طـريق صحيـح لإثبات الصـانـع، بل عـدلوا عن الـطرق العقلية التي يعلمهـا العقلاء بفـطرتهم، وهي التي دلتهم عليها الرسل إلى طرق سلكوها مخالفة للشرع والعقـل، لا سيما من سلك طـريقة الـوجوب والإمكـان متابعة لابن سينا كالـرازي، فإن هؤلاء من أفسـد الناس استـدلالاً كما قـد ذكرنـا في طرق عـامة النظار في غير هذا الموضـع، مثل كتاب منع تعارض العقل والنقل وغير ذلك. والمقصود هنا أن الرازي ذكر أن ما يستدل به على إثبات الصـانـع، وإما حـدوث الأجسام وإمـا حدوث صفـاتها، وإما إمكانها وإما إمكان صفاتها. وذكر في بعض المواضـع.

(١) سورة الأنعام: الآيات ٩٥ ـ ٩٩.

وإما الاحكام والإتقان، لكن الإحكام والإتقان يدل على العلم ابتداء، والإستدلال بحدوث الأجسام وإمكانها وإمكان صفاتها طرق فاسدة، فإن دلالة حدوثها مبينة على أن ما قامت به الصفات يمتنع أن يكون واجباً بنفسه لأنه مركب ودلالة صفاتها مبنية على تماثلها، فلا بد لتخصيص بعضها بالصفات من مخصص، وهذه كلها طرق باطلة.

قال: وأما الإستدلال بحدوث الصفات فهو الإستدلال بحدوث الأعراض، وهذه الطريق أجود ما سلكوه من الطرق مع أنها قاصرة، فإن مدارها على أنهم لم يعرفوا حدوث شيء من الأعيان، وإنما علموا حدوث بعض الصفات، وهذا يدل على أنه لا بد لها من محدث.

قال: وهذا لا ينفي كون المحدث جسماً بخلاف تلك الطرق، وهذه الطريق تدل على أن الأعراض كتركيب الإنسان لا بد له من مركب لا ينفي بها شيء من قدم الأجسام والجواهر، بل يجوز أن يكون جميع جواهر الإنسان وغيره قديمة أزلية، لكن حدثت فيها الأعراض. ويجوز أن يكون المحدث للأعراض بعض أجسام العالم، فهذه الطريق لا تنفي أن يكون الرب بعض أجسام العالم وتلك باطلة، مع أن مضمونها أن الرب لا يتصف بشيء من الصفات، فهي تدل على صانع، وإن دلت على صانع فليس بموجود بل معدوم أو متصف بالوجود والعدم، كما قد بسط في غير موضع.

ولهذا يقول الرازي في آخر مصنفاته: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿إليه يَصعدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[1]. ﴿الرحمَنُ عَلىَ العَرشِ استَوى﴾ واقرأ في النفي: ﴿ليس كَمثله شَيءٌ﴾[2]. ﴿ولا يحيطُونَ بهِ عِلماً﴾. قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

ولما ذكر الرازي الإستدلال بحدوث الصفات كالحيوان والنبات والمطر، ذكر أن هذه طريقة القرآن، ولا ريب أن القرآن يذكر فيه الإستدلال بآيات الله كقوله: ﴿إنَّ في خَلقِ السَمواتِ والأرضِ واختلافِ اللَيل والنهَار والفُلكِ التي تجري في البَحرِ بمَا يَنْفَعُ النّاس ومَا أنزل الله مِنْ السّماء من مَاءٍ فَأحيَا بهِ الأرض بَعْد مَوتهَا وبَثَّ فيهَا مِنْ كُلِّ دابَةٍ وتَصْرِيفِ الرِيَّاحِ والسّحَابِ المُسَخّرِ بَين السَمَاءِ والأرضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعقلون﴾[3]. وهذا مذكور بعد قوله: ﴿وإلهَكُم إلَهٌ

(١) سورة الشورى: الآية ١١.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٠.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٦٤.

واحِدٌ لا إلَه إلاَّ هو الرَّحمَنُ الرَّحيم﴾[1] وقبل قوله: ﴿ومِن النّاس مَنْ يَتّخِذُ مِنْ دُونِهِ أنْداداً يُحبونهَم كَحُبِ الله﴾. لكن القرآن لم يذكر أن هذه صفات حادثة، وأنه ليس فيها أحداث عين قائمة بنفسها، بل القرآن يبين أن في خلق الأعيان القائمة بنفسها آيات ويذكر الآيات في خلق الأعيان والأعراض كقوله: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ واختلاف اللّيْلِ والنَهارِ والفُلكِ التي تجري في البَحْرِ بمَا يَنْفَعُ النّاس﴾ وهي أعيان، ثم قال ﴿ومَا أنزل الله مِن السماءِ مِنْ مَاءٍ﴾، والماء عين قائمة بنفسها، وقوله ﴿فأحيَا بهِ الأرض بَعْد مَوتِها﴾ هو بما يخلقه فيها من النبات، وهو أعيان. وكذلك قوله: ﴿وبثَّ فيها من كُلِّ دابّةٍ﴾، وقوله ﴿وَتَصْرِيفِ الرِيَّاح﴾ فالرياح أعيان وتصريفها أعراض، وقوله: ﴿والَسَحَابِ المسخرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأرض﴾ والسحاب أعيان ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعقِلون﴾. وقد تقدم أن أصل الإشتباه في هذا أن خلق الشيء من مادة هل هو خلق عين أم إحداث إجتماع وإفتراق وإعراض فقط؟ والناس مختلفون في هذا على ثلاثة أقوال: فالقائلون بالجواهر الفردة من أهل الكلام القائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر الصغار التي قد بلغت من الصغر إلى حد لا يتميز منها جانب عن جانب، يقولون: تلك الجواهر باقية تنقلت في الحوادث، ولكن تعتقب عليها الأعراض الحادثة والإستدلال والأعراض على حدوث ما يلزمه من الجواهر، ثم الإستدلال بذلك على المحدث غير الإستدلال بحدوث هذ الأعراض على المحدث لها، فتلك هي طريقة الجهمية المشهورة، وهي التي سلكها الأشعري في كتبه كلها متابعة للمعتزلة، ولهذا قيل: الأشعرية مخانيث المعتزلة.

وأما الإستدلال بالحوادث على المحدث، فهي الطريقة المعروفة لكل أحد، لكن تسمية هذه أعراضاً هو تسمية القائلين بالجوهر الفرد، مع أن الرازي توقف في آخر أمره فيه، كما ذكر ذلك في نهاية العقول. وذكر أيضاً عن أبي الحسين البصري وأبي المعالي أنهما توقفا فيه. والمقصود: أن القائلين بالجوهر الفرد يقولون: إنما يقولون إنما أحدث أعراضاً كجمع الجواهر وتفريقها، فالمادة التي هي الجواهر المنفردة باقية عندهم بأعيانها ولكن أحدث صوراً هي أعراض قائمة بهذه الجواهر، وأما المتفلسفة فيقولون: أحدث صوراً في مواد باقية كما يقول هؤلاء، لكن يقولون: أحدث صوراً هي جواهر في مادة هي جوهر، وعندهم ثم مادة باقية بعينها والصور الجوهرية، كصورة الماء والهواء والتراب والمولدات تعتقب عليها، وهذه المادة عندهم جوهر عقلي، وكذلك الصورة المجردة جوهر عقلي، ولكن الجسم مركب من المادة والصورة، ولهذا قسموا الموجودات، فقالوا: إما أن يكون الموجود حالاً بغيره أو محلاً أومركباً من الحال

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

والمحل، أو لا هذا ولا هذا، فالحال في غيره هو الصورة، والمحل هو المادة، والمركب منهما هو الجسم، وما ليس كذلك إن كان متعلقاً بالجسم فهو النفس، وإلا فهو العقل، وهذا التقسيم فيه خطأ كثير من وجوه ليس هذا موضعها، إذ المقصود أنهم يقولون أيضاً أنه لم يحدث جسماً قائماً بنفسه، بل إنما أحدث صورة في مادة باقية، ولا ريب أن الأجسام بينها قدر مشترك في الطول والعرض والعمق، وهو المقدار المجرد الذي لا يختص بجسم بعينه، ولكن هذا المقدار المجرد هو في الذهن لا في الخارج، كالعدد المجرد والسطح المجرد، والنقطة المجردة، وكالجسم التعليمي وهو الطويل العريض العميق الذي لا يختص بمادة بعينها.

فهذه المادة المشتركة التي أثبتوها هي في الذهن، وليس بين الجسمين في الخارج شيء اشتركا فيه بعينه، فهؤلاء جعلوا الأجسام مشتركة في جوهر عقلي، وأولئك جعلوها مشتركة في الجواهر الحسية، وهؤلاء قالوا: إذا خلق كل شيء من شيء فإنما أحدثت صورة من أن المادة باقية بعينها لكن أفسدت صورة وكونت صورة، ولهذا يقولون عن ما تحت الفلك عالم الكون والفساد، ولهذا قال ابن رشد: أن الأجسام المركبة من المادة والصورة هي في عالم الكون والفساد، بخلاف الفلك فإنه ليس مركباً من مادة وصورة عند الفلاسفة.

قال: وإنما ذكر أنه مركب من هذا وهذا ابن سينا، وهؤلاء تحيروا في خلق الشيء من مادة كخلق الإنسان من النطفة، والحب من الحب، والشجرة من النواة، وظنوا أن هذا لا يكون إلا مع بقاء أصل تلك المادة، أما الجواهر عند القوم، وإما المادة المشتركة عند قوم. وهم في الحقيقة ينكرون أن يخلق الله شيئاً من شيء، فإنه عندهم لم يحدث إلا الصورة التي هي عرض عند قوم أو جوهر عقلي عند قوم، وكلاهما لم يخلق من مادة، والمادة عندهم باقية بعينها لم يخلق ولن يخلق منها شيء.

وقد ذكروا في قوله ﴿أم خلِقُوا من غيرِ شَيءٍ﴾[1] ثلاثة أمور: قال ابن عباس[2] والأكثرون: أم خلقوا من غير خالق وهو الذي ذكره الخطابي. وقال الزَّجّاجُ وابن كيسان: أم خلقوا عبثاً وسدى فلا يبعثون ولا يحاسبون ولا يؤمرون، ولا ينهون كما يقول: فعلت هذا من غير شيء أي لغير علة.

وقيل: أم خلقوا من غير مادة أي من غير أب وأم. ثم من هؤلاء من قال: فهم كالجماد،

---

(١) سورة الطور: الآية ٣٥.

(٢) ذكر القرطبي (٧٤/١٧) عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية: من غير رب خلقهم وقدرهم.

ومنهم من قال: كالسموات ظناً منه أنها خلقت من غير مادة. ذكر الاربعة أبو الفرج. وذكر البغوي الوجهين الأولين.

والذين ذكرناه من قول أولئك المتكلمين والفلاسفة معنى آخر، وهو أن من قال: المادة باقية بعينها وإنما حدث عرض أو صورة، وذلك لم يخلق من غيره، ولكن أحدث في المادة الباقية. فلا يكون الله خلق شيئاً من شيء، لأن المادة عندهم لم تخلق، أما المتفلسفة فعندهم المادة قديمة أزلية باقية بعينها، وأما المتكلمون فالجواهر عندهم موجودة ما زالت موجودة، لكن من قال أنها حادثة من أهل الملل وغيرهم قالوا: يستدل على حدوثها بالدليل، لا أن خلقها معلوم للناس، فهو عندهم مما يستدل عليه بالأدلة الدقيقة الخفية، مع أن ما يذكرونه منتهاه إلى أن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وهو دليل باطل، فلا دليل عندهم على حدوثها، وإذا كانت لم تخلق إذ خلق الإنسان بل هي باقية في الإنسان، والأعراض الحادثة لم تخلق من مادة، فإذا خلق الإنسان لم يخلق من شيء لا جواهره ولا أعراضه، وعلى قولهم ما جعل الله من الماء كل شيء حي، ولا خلق كل دابة من ماء، ولا خلق آدم من تراب، ولا ذريته من نطفة، بل نفس الجواهر الترابية باقية بعينها لم تخلق حينئذ، ولكن أحدث فيها أعراض أو صورة حادثة، وتلك الأعراض ليست من التراب، فلما خلق آدم لم يخلق شيء من تراب وكذلك النطفة جواهرها باقية، أما الجواهر المنفردة وأما المادة والحادث هو عرض أو صورة في مادة ولا هذا ولا هذا خلق من نطفة، وليس قولهم أنه لم يخلق من مادة معناه أن الخالق أبدعه لا من شيء، وأنهم قصدوا بها تعظيم الخالق، بل الإنسان لا ريب أنه جوهر قائم بنفسه، وعندهم ذلك القائم بنفسه ما زال موجوداً لم يخلق إذ خلق الإنسان والجوهر الحامل لصورته ما زال موجوداً أيضاً، لم يخلق عند هؤلاء إلا الأعراض، وعند هؤلاء إلا صورة مجردة، وكلاهما ليس هو الإنسان بل صفة له أو صورة له، هذا هو المخلوق عندهم يخلق الإنسان فقط. وقد قال تعالى: ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ من قَبلُ ولَمْ يَكُ شيئاً﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خلقْتُكَ مِنْ قبلُ وَلَمْ تَكُ شَيئاً﴾[2]. فقد أمر الإنسان أن يتذكر أن الله خلقه ولم يك شيئاً، والإنسان إذا تذكر إنما يذكر أنه خلق من نطفة.

وعندهم ما زال جواهر الإنسان شيئاً وذلك الشيء باق، وإنما حدث أعراض لتلك الأشياء. ومعلوم أن تلك الأعراض وحدها ليست هي الإنسان، فإن الإنسان مأمور منهي حي عليم قدير متكلم سميع بصير موصوف بالحركة والسكون، وهذه صفات الجواهر، والعرض

(١) سورة مريم: الآية ٦٧.

(٢) سورة مريم: الآية ٨.

لا يوصف بشيء لا سيما وهم يقولون العرض لا يبقى زمانين. فالمخلوق على قولهم لا يبقى زمانين بل يفنى عقب ما يخلق، ولهذا اضطربوا في المعاد، فإن معرفة المعاد مبنية على معرفة المبدأ، والبعث مبني على الخلق، فقال بعضهم: هو تفريق تلك الأجزاء ثم جمعها وهي باقية بأعينها. وقال بعضهم: بل يعدمها ويعدم الأعراض القائمة بها ثم يعيدها، وإذا أعادها فإنه يعيد تلك الجواهر التي كانت باقية، إلى أن حصلت في هذا الإنسان، فلهذا اضطربوا لما قيل لهم: فالإنسان إذا أكله حيوان آخر، فإن أعيدت تلك الجواهر من الأول نقصت من الثاني وبالعكس. أما على قول من يقول أنها تفرق، ثم تجمع فقيل له: تلك الجواهر إن جمعت للآكل نقصت من المأكول وإن أعيدت للمأكول نقصت من الآكل.

وأما الذي يقول: تعدم ثم تعاد بأعيانها فقيل به: أتعدم لما أكلها الآكل أم قبل أن يأكلها؟ فإن كان بعد أن أكلها فإنها تعاد في الآكل فينقص المأكول، وإن كان قبل الأكل فالآكل لم يأكل إلا أعراضاً، لم يأكل جواهر، فهذا مكابرة، ثم أن المشهور أن الإنسان يبلى ويصير تراباً كما خلق من تراب وبذلك أخبر الله، فإن قيل إنه إذا صار تراباً عدمت تلك الجواهر فهو لما خلق من تراب عدمت أيضاً تلك الجواهر فكونهم يجعلون الجواهر باقية في جميع الاستحالات إلا إذا صار تراباً تناقض بين، ويلزمهم عليه الحيوان المأكول وغير ذلك، وكأن هذا الضلال أصل ضلالهم في تصور الخلق الأول والنشأة الأولى التي أمرهم الرب أن يتذكروها ويستدلوا بها على قدرته على الثانية. قال تعالى: ﴿أفرأيتم مَا تُمنُون أأنتُمْ تَخلُقُونَهُ أمْ نَحْنُ الخَالِقون، نَحْنُ قَدَّرنَا بَيْنَكُمْ المَوتَ وَمَا نَحنُ بمسبُوقين عَلى أنْ نُبَدِّلَ أمثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فيمَا لاَ تَعْلَمون، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النشأةِ الأولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُون﴾[1].

والفلاسفة أجود تصوراً في هذا الموضع حيث قالوا: تفسد الصورة الأولى وهي جوهر ويحدث صورة أخرى، فإن هذا أجود من أن يقال يزول عرض ويحدث عرض. ولكن الفلاسفة غلطوا في توهمهم أن هناك مادة باقية بعينها، وإنما تفسد صورتها. والحق أن المادة التي منها يخلق الثاني تفسد وتستحيل وتفنى وتتلاشى وينشىء الله الثاني ويبتديه، ويخلق من غير أن يبقى من الأول لا مادة ولا صورة ولا جوهر ولا عرض. فإذا خلق الله الإنسان من المني فالمني استحال وصار علقة، فالعلقة استحالت وصارت مضغة، والمضغة استحالت إلى عظام وغير عظام. والإنسان بعد أن خلق خلق كله جواهره وأعراضه وابتدأه الله ابتداء كما قال تعالى: ﴿الذي أحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأ خَلقَ الإنسان من طينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ منْ مَاءٍ

(١) سورة الواقعة: الآية ٥٩.

مَهِينٍ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[2]. فالإنسان مخلوق، خلق الله جواهره وأعراضه كلها من المني من مادة استحالت ليست باقية بعد خلقه كما تقول المتفلسفة أن هناك مادة باقية. ولفظ المادة مشترك.

فالجمهور يريدون به ما منه خلق وهو أصله وعنصره، وهؤلاء يريدون بالمادة جوهر باق وهو محل للصورة الجوهرية، فلم يخلق عندهم الإنسان من مادة، بل المادة باقية، وأحدث صورته فيها كما أن الصور الصناعية كصورة الخاتم والسرير والثياب والبيوت وغير ذلك، إنما أحدث الصانع صورته العرضية في مادة لم تزل موجودة ولم تفسد، لكن حولت من صفة إلى صفة. فهكذا تقول الجهمية المتكلمة المبتدعة أن الله أحدث صورة عرضية في مادة باقية لم تفسد، فيجعلون خلق الإنسان بمنزلة عمل الخاتم والسرير والثوب.

والمتفلسفة تقول أيضاً إن مادته باقية لم تفسد كمادة الصور الصناعية، لكن يقولون أنه أحدث صورة جوهرية، وهم قد يخلطون ولا يفرقون بين الصور العرضية والجوهرية، فإنهم يسمون صورة الإنسان صورة في مادة، وصورة الخاتم صورة في مادة، فيكون خلق الإنسان عند هؤلاء وهؤلاء من جنس ما يحدثه الناس في الصور من المواد، ويكون خلقه بمنزلة تركيب الحائط من اللبن. ولهذا قال من قال منهم أنه يستغني عن الخالق بعد الخلق كما يستغني الحائط بعد البنّاء.

والأشعرية عندهم أن البناء والخياط وسائر أهل الصنائع لم يحدثوا في تلك المواد شيئاً. فإن القدرة المحدثة عندهم، تتعلق إلا بما هو في محلها لا خارجاً عن محلها. ويقولون إن تلك المصنوعات كلها مخلوقة لله ليس للإنسان فيها صنع، وخلق الله على أصلهم هو إحداث أعراض فيها كما تقدم فينكرون ما يصنعه الإنسان، وهو في الحقيقة مثلما يجعلونه مخلوقاً للرحمن، وهم لا يشهدون للرحمن إحداثاً ولا إفناء، بل إنما يحدث عندهم الاعراض، وهي تفنى بأنفسها لا بإفنائه، وهي تفنى عقب احداثها. وهذا لا يعقل، وهم جائزون إذا أراد أن يعدم الأجسام كيف يعدمها، والمشهور عندهم أنها تعدم بأنفسها إذا لم يخلق لها أعراضاً. فالعرض يفنى عندهم بنفسه والجوهر يفنى بنفسه إذا لم يخلق عرض بعد عرض، هذا في الإفناء. وأما في الاحداث فإنهم استدلوا على حدوثها بدليل باطل لو كان صحيحاً للزم حدوث كل شيء من غير محدث.

---

(١) سورة السجدة: الآية ٧.

(٢) سورة مريم: الآية ٦٧.

فحقيقة أصل أهل الكلام المتبعين للجهمية أنه لا يحدث شيئاً ولا يفنى شيئاً، بل يحدث كل شيء بنفسه ويفنى بنفسه، ويلزمهم جواز أن يكون الرب محدثاً أيضاً بلا محدث. وهذ الأصول هي أصول دينهم العقلية التي بها يعارضون الكتاب والسنة والمعقولات الصريحة، وهي في الحقيقة لا عقل ولا سمع، كما حكى الله عن من قال: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعقِلُ ما كُنَّا في أَصْحَابِ السَّعيرِ﴾[1]. والخلق يشهدون أحداث الله لما يحدثه وافناءه لما يفنيه، كالمني الذي استحال وفني وتلاشى وأحدث منه هذا الإنسان، وكالحبة التي فنيت واستحالت وأحدث منها الزرع، وكالهواء الذي استحال وفني وحدث منه النار أو الماء، وكالنار التي استحالت وحدث منها الدخان، فهو سبحانه دائماً يحدث ما يحدثه ويكونه ويفني ما يفنيه ويعدمه. والإنسان إذا مات وصار تراباً فني وعدم، وكذلك سائر ما على الأرض كما قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيها فَانٍ﴾[2]. ثم يعيده من التراب كما خلقه ابتداء من التراب ويخلقه خلقاً جديداً. ولكن للنشأة الثانية أحكام وصفات ليست للأولى فمعرفة الإنسان بالخلق الأول، وما يخلقه من بني آدم وغيرهم من الحيوان، وما يخلقه من الشجر والنبات والثمار، وما يخلقه من السحاب والمطر وغير ذلك هو أصل لمعرفته بالخلق والبعث بالمبدأ والمعاد، وإن لم يعرف أن الله يخلقه كله من المني جواهره وأعراضه، وإلا فما عرف أن الله خلقه. ومن ظن أن جواهره، لم يخلقها إذ خلقه، بل جواهر المني وجواهر ما يأكله ويشربه باقية بعينها فيه لم يخلقها أو أن مادته التي تقوم بها صورته لم يخلقها إذ خلقه بل هي باقية أزلية أبدية لم يكن قد عرف أنه مخلوق محدث.

والعلماء ينكرون على من يقول: أن روح الإنسان قديمة أزلية من المنتسبين إلى الإسلام، وهؤلاء الذين يقولون أن مادة جسمه باقية بعينها وهي أزلية أبدية أبعد عن العقل والنقل منهم، وأولئك أنكروا عليهم حيث قالوا: الإنسان مركب من قديم، ومحدث من لاهوت قديم وناسوت محدث. أو هؤلاء جعلوه مركباً من مادة قديمة أزلية وصورة محدثة، وجعلوا القديم الأزلي فيه أخس ما فيه وهو المادة، فإنها عندهم أخس الموجودات، وهي قديمة أزلية، وأولئك جعلوا القديم الأزلي أشرف ما فيه، وهي النفس الناطقة. وكلا الطائفتين وإن كان ضالاً، فالشريف العالي أولى بالقدم من الخسيس السافل وهذا أولى بالحدوث.

وأما المتكلمة الجهمية فهم لا يتصورون ما يشهدونه من حدوث هذه الجواهر في جواهر أخر من مادة، ثم يدعون أن الجواهر جميعها أبدعت ابتداء لا من شيء، وهم لم يعرفوا قط جوهراً أحدث لا من شيء، كما لم يعرفوا عرضاً أحدث لا في محل. وحقيقة قولهم أن الله لا

---

(١) سورة الملك: الآية ١٠.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٢٦.

يحدث شيئاً من شيء لا جوهراً ولا عرضاً، فإن الجواهر كلها أحدثت من شيء والأعراض كذلك.

والمشهود المعلوم للناس إنما هو إحداثه لما يحدثه من غيره لا إحداثاً من غير مادة، ولهذا قال تعالى: ﴿وقَدْ خَلَقْتُك مِنْ قَبْلُ ولَمْ تَكُ شَيئاً﴾[1]. ولم يقل خلقتك لا من شيء وقال تعالى: ﴿والله خَلَق كُلَّ دابةٍ من مَاءٍ﴾[2]. ولم يقل خلق كل دابة لا من شيء. وقال تعالى: ﴿وجَعَلْنَا مِن المَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍ﴾[3]. وهذا هو القدرة التي تبهر العقول، وهو أن يقلب حقائق الموجودات فيحيل الأول ويفنيه ويلاشيه، ويحدث شيئاً آخر كما قال: ﴿فَالِقُ الحَبِّ والنَّوى يُخرِجُ الحَيَّ مِن المَيْتَ ومُخْرِجُ المَيْت مِن الحَيِّ﴾[4] ويخرج الشجرة الحية والسنبلة من النواة والحية الميتة، ويخرج النواة الميتة والحبة الميتة من الشجرة والسنبلة الحية كما يخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة، والنطفة الميتة من الإنسان الحي، وعندهم لا يخرج حياً من ميت ولا ميتاً من حي، فإن الحي والميت إنما هو الجوهر القائم بنفسه، فإن الحياة عرض لا يقوم إلا بجوهر، والعرض نفسه لا يقوم بعرض آخر، وإن كان العرض يوصف بأنه حي كما يقال: قد أحييت العلم والإيمان، وأحييت الدين، وأحييت السنة والعدل، كما يقال أمات البدعة. فهؤلاء عندهم لا يخرج جوهراً ولا عرضاً من عرض، فلا يخرج حياً من ميت ولا ميتاً من حي، بل الجواهر التي كانت في الميت هي بعينها باقية كما كانت، ولكن أحداث فيها حياة ولم تكن.

وتلك الحياة لم تخرج من ميت، فما أخرج عندهم حي من ميت ولا ميت من حي. ولهذا ينكرون أن يقلب الله جنساً إلى جنس آخر ويقولون: الجواهر كلها جنس واحد، فإذا خلق النطفة إنساناً لم يقلب عندهم جنساً إلى جنس، بل نفس الجواهر هي باقية كما كانت، وخاصية الخلق إنما هي بقلب جنس إلى جنس، وهذا لا يقدر عليه إلا الله كما قال تعالى: ﴿يَا أيهَا النَّاسُ ضُرب مثلٌ فَاستمعوا لَهُ إنَّ الَّذين تَدْعُون من دُون الله لَنْ يخلقُوا ذُبَاباً ولَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وإنْ يسلبهُم الذُبابُ شَيئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضعف الطَالِبُ والمَطْلُوبُ مَا قَدرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إنَّ الله لَقَوِيٌ عَزِيزٌ﴾[5].

ولا ريب أن النخلة ما هي من جنس النواة، ولا السنبلة من جنس الحبة، ولا الإنسان من جنس المني، ولا المني من جنس الإنسان، وهو يخرج هذا من هذا، فيخرج كل جنس من

---

(١) سورة مريم: الآية ٨.
(٢) سورة النور: الآية ٤٥.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٣٨.
(٤) سورة الأنعام: الآية ٩٥.
(٥) سورة الحج: الآية ٧٣.

جنس آخر بعيد عن مماثلته. وهذا خلق الله فأروني ماذا الذين من دونه وهو سبحانه إذا جعل الأبيض أسود أعدم ذلك البياض، وجعل موضعه السواد، لا أن الأجسام تعدم تلك المادة فتحليها وتلاشيها وتجعل منها هذا المخلوق الجديد، ويخلق الضد من ضده، كما جعل من الشجر الأخضر ناراً فإذا حك الأخضر بالأخضر سخن ما يسخنه بالحركة حتى ينقلب نفس الأخضر فيصير ناراً. وعلى قولهم ما جعل فيه ناراً بل تلك الجواهر باقية بعينها وأحدث فيها عرض لم يكن. وخلق الشيء من غير جنسه أبلغ في قدرة القادر الخالق سبحانه وتعالى كما وصف نفسه بذلك في قوله: ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالك المُلكِ تُؤْتي المُلْك مَنْ تَشَاء وتَنْزع المُلْك مِمّن تَشَاء وتُعزُّ مَنْ تَشَاء وتَذل مَن تَشاء بَيدِك الخَير إنّك عَلى كُل شَيء قَدير، تُولج الليل في النهارِ وتُولج النَهار في الليلِ وتُخرِجُ الحَي مِن المَيتِ وتُخرِجُ الميت مِن الحَي وترزُقُ مَن تَشَاءُ بغَيرِ حَسَابٍ﴾[1]. ولهذا قال للملائكة ﴿إني خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ فَإذا سَويتُهُ ونَفَخْتُ فيهِ مِن رُوحي فَقعوا له سَاجِدين﴾[2] وقال: ﴿ألَمْ نَخْلُقْكم مِن مَاءٍ مَهينٍ فَجَعَلْنَاهُ في قَرارٍ مَكينٍ إلى قَدرٍ مَعلومٍ فَقَدرنا فَنِعم القَادِرُون﴾[3].

ولهذا امتنع اللعين كما قال تعالى: ﴿وإذْ قُلنَا للمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدم فَسَجَدُوا إلَّا إبليس قَال أأَسْجُدُ لمنْ خَلَقْت طِيناً﴾[4]، وقال: ﴿لم أكن لأسجدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ من صلْصَالٍ من حمأ مَسْنونٍ﴾[5]. وأيضاً فكون الشيء مخلوقاً من مادة وعنصر أبلغ في العبودية من كونه خلق لا من شيء وأبعد عن مشابهة الربوبية، فإن الرب هو أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فليس له أصل وجد منه ولا فرع يحصل عنه، فإذا كان المخلوق له أصل وجد منه كان بمنزلة الولد له، وإذا خلق له شيء آخر كان بمنزلة الوالد، وإذا كان والداً ومولوداً كان أبعد عن مشابهة الربوبية والصمدية، فإنه خرج من غيره، ويخرج منه غيره، لا سيما إذا كانت المادة التي خلق منها مهينة كما قال تعالى: ﴿ألَمْ نَخلقكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهينٍ﴾[6] وقال تعالى: ﴿فَلينظُرِ الإنْسانُ مِمَ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَينِ الصُلبِ والتِرائِبِ إنه عَلى رَجعهِ لَقَادِرٌ يَومَ تُبلى السَرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قوةٍ وَلَا نَاصِر﴾[7]. وفي المسند عن بشر بن جحاش قال: بصَق رسول الله ﷺ فوضع عليها إصبعه ثم قال: «يقول الله تعالى: ابن آدم أنّى تُعجِزني وَقَدْ خَلَقْتُكَ من مِثلِ هَذهِ حَتى إذا سَوّيتكَ وَعَدلتك مشيت بَينَ بَردين وَللأرضِ مِنكَ وَئِيدٌ فَجَمعتَ وَمَنَعْتَ حَتى

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٦.
(٢) سورة ص: الآية ٧١.
(٣) سورة المرسلات: الآية ٢٠ ــ ٢٣.
(٤) سورة الاسراء: الآية ٦١.
(٥) سورة الحجر: الآية ٢٣.
(٦) سورة المرسلات: الآية ٢٠.
(٧) سورة الطارق: الآيتان ٥، ٦.

إذا بَلَغْتَ التَراقي قُلتْ أتصدق وأنى أوان الصَدَقَة»، وكذلك إذا خلق في محل مظلم وضيق كما خلق الإنسان في ظلمات ثلاث كان أبلغ في قدرة القادر وأدل على عبودية الإنسان وذله لربه وحاجته إليه.

وقد يقول المُعَير للرجل: ما لك أصل ولا فصل، ولكن الإنسان أصله التراب وفصله الماء المهين. ولهذا لما خلق المسيح من غير أب وقعت به الشبهة لطائفة، وقالوا إنه ابن الله مع أنه لم يخلق إلا من مادة من أمه، ومن الروح التي نفخ فيها. كما قال تعالى: ﴿وَمَريمَ ابنَةَ عِمرانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فيهِ مِنْ روُحِنَا﴾[1] وقال تعالى أيضاً: ﴿فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوياً قَالَت إني أَعُوذُ بالرحْمَنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقياً قَالَ إنَمّا أنا رَسُولُ رَبِّكِ لأهب لَكِ غُلاَمَاً زَكياً﴾[2]. فما خلق من غير مادة تكون كالأب له قد يظن فيه أنه ابن الله، أن الله خلقه من ذاته.

فلهذا كانت الأنبيآء مخلوقة من مادة لها أصول ومنها فروع، لها والد ومولود، والأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وحدوث الشيء لا من مادة قد يشبه حدوثه من غير رب خالق، وقد يظن أنه حدث من ذات الرب كما قيل مثل ذلك في المسيح والملائكة أنها بنات الله لما لم يكن لها أب، مع أنها مخلوقة من مادة كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة «أن النبي ﷺ قال: خُلِقَتُ المَلائكة مِن نُورٍ، وَخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخَلَقَ آدَمَ مِمَا وَصَفَ لَكُم».

ولما ظن طائفة أنها لم تخلق من مادة ظنوا أنها قديمة أزلية، وأيضاً فالدليل الذي احتج به كثير من الناس على أن كل حادث لا يحدث إلا من شيء أو شيء أو في شيء، فإن كان عرضاً لا يحدث إلا في محل، وإن كان عيناً قائمة بنفسها لم تحدث إلا من مادة، فإن الحادث إنما يحدث إذا كان حدوثه ممكناً، وكان يقبل الوجود والعدم، فهو مسبوق بإمكان الحدوث وجوازه فلا بد له من محل يقوم به هذا الإمكان والجواز، وقد تنازعوا في هذا هل الإمكان صفة خارجية لا بد لها من محل، أو هي حكم عقلي لا يفتقر إلى غير الذهن. والتحقيق أنه نوعان: فالإمكان الذهني وهو تجويز الشيء أو عدم العلم بامتناعه محل الذهن والإمكان الخارجي المتعلق بالفاعل، أو المحل مثل أن تقول يمكن القادر أن يفعل.

والمحل مثل أن تقول هذه الأرض يمكن أن تزرع، وهذه المرأة يمكن أن تحبل، وهذا لا بد له من محل خارجي، فإذا قيل عن الرب يمكن أن يخلق فمعناه أنه يقدر على ذلك

---

(١) سورة التحريم: الآية ١٢.

(٢) سورة مريم: الآية ١٩.

ويتمكن منه، وهذه صفة قائمة به، وإذا قيل يمكن أن يحدث حادث، فإن قيل يمكن حدوثه بدون سبب حادث فهو ممتنع، وإذا كان الحدوث لا بد من سبب حادث، فذاك السبب إن كان قائماً بذات الرب فذاته قديمة أزلية. واختصاص ذلك الوقت بقيام مشيئته أو تمام تمكن، ونحو ذلك لا يكون إلا لسبب قد أحدثه قبل هذا في غيره، فلا يحدث حادث مباين إلا مسبوقاً بحادث مباين له.

فالحدوث مسبوقاً بإمكانه، ولا بد لإمكانه من محل. ولهذا لم يذكر الله قط أنه أحدث شيئاً إلا من شيء. والذي يقول أن جنس الحوادث حدثت لا من شيء هو كقولهم أنها حدثت بلا سبب حادث، مع قولهم أنها كانت ممتنعة ثم صارت ممكنة من غير تجدد سبب. بل حقيقة قولهم أن الرب صار قادراً بعد أن لم يكن من غير تجدد شيء، يوجب ذلك.

وهذه الأمور كلها من أقوال الجهمية أهل الكلام المحدث المبتدع المذموم، وهو بناء على أقوالهم أنه تمتنع حوادث لا أول لها. وهؤلاء وأمثالهم غلطوا فيما جاء به الشرع وأخبرت به الرسل، كما غلطوا في المعقولات. فكل واحد مما يسمى شرعاً وعقلاً وسمعاً قد وقع فيه اشتباه. فالشرع يطلق تارة على ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة، هذا هو الشرع المنزل، وهو الحق الذي ليس لأحد خلافه. ويطلق على ما يضيفه بعض الناس إلى الشرع إما بالكذب والإفتراء، وإما بالتأويل والغلط، وهذا شرع مبدل لا منزل ولا يجب، بل ولا يجوز اتباعه.

وكذلك لفظ السنة التي يجب اتباعها هي سنة رسول الله ﷺ، والسنة تذكر في الأصول والإعتقادات، وتذكر في الأعمال والعبادات، وكلاهما يدخل فيما أخبر وأمر به. فما أخبر به وجب تصديقه فيه، وما أوجبه وأمر به وجبت طاعته فيه. ثم كثير من الناس يضيف إلى السنة ما أدخله بعض الناس فيها إما باكذب وإما بالتأويل مثل أحاديث كثيرة ضعيفة بل بموضوعة، واستدلالات بأقواله على ما لا يدل. ومثل أقوال أحدثها قوم انتسبوا إلى السنة في بعض الأمور، مثل إثبات الصفات والقدر، فإن المنتسبين لذلك يضافون إلى السنة، لأن نفاة الصفات والقدر مبتدعة، وكذلك حب الخلفاء الراشدين وموالاتهم يضاف أهله إلى السنة لأن الطاعنين فيهم أهل بدعة. ومثل الإستدلال بالنصوص على موارد النزاع، فإن أهل ذلك يضافون إلى السنة لكونهم يقصدون اتباع القرآن والحديث، والمخالفون لذلك يردون الأخبار الصحيحة أو لا يحتجون بالقرآن مبتدعون.

ثم قد يقول المضافون إلى السنة أشياء ليست من السنة، مثل أحاديث كثيرة يروونها في

فضائل بعض الصحابة وهي كذب. ومثل [تقولهم في][1] الحكمة والأسباب في مسائل القدر. ومثل كلامهم في الأجسام والاعراض وتناهي الحوادث، ونحو ذلك مما لم يأخذوه عن الرسول. فهذا ليس من السنة، وإن كان أهلها وافقوا في مواضع خالفهم فيها من تنازعهم في هذه المسائل.

فلا يجب إذا كانوا أصابوا حيث وافقوا السنة أن يصيبوا حيث لم يوافقوها. وكذلك مسمى العقل، فإن مسمى العقل قد مدحه الله في القرآن في غير آية، لكن لما أحدث قوم من الكلام المبتدع المخالف للكتاب والسنة، بل وهو في نفس الأمر مخالف للمعقول، وصاروا يسمون ذلك عقليات وأصول دين، وكلاماً في أصول الدين صار من عرف أنهم مبتدعة ضلال في ذلك ينفر عن جنس المعقول والرأي والقياس والكلام والجدل، فإذا رأى من يتكلم بهذا الجنس اعتقده مبتدعاً مبطلاً، كماأن هؤلاء لما رأوا أن جنس المنتسبين إلى السنة والشرع والحديث قد أخطأوا في مواضع وخالفوا فيها صريح المعقول، وهم يقولون أن السنة جاءت بذلك صار هؤلاء ينفرون عن جنس ما يستدل في الأصول بالشرع والسنة ويسمونهم حشوية وعامة، وكل من هؤلاء وهؤلاء أدخلوا في مسمى الشرع والعقل والسمع ما هو محمود ومذموم.

ثم هؤلاء قبلوا من مسمى الشرع والسنة عندهم محموده ومذمومه، وخالفوا مسمى العقل محموده ومذمومه. وأولئك قبلوا مسمى العقل عندهم محموده ومذمومه وخالفوا مسمى الشرع محموده ومذمومه، فيجب البيان والتفصيل والإستفسار وبيان الفرقان بين الحق والباطل، فإن ذلك يوجب التصديق بما جاء به الشرع المنزل والسنة الغراء وهو المعقول الحق، وهو الكلام الصدق، وهو الجدل بالتي هي أحسن. ويوجب رد ما أدخل في الشرع والسنة وليس منها ورد ما سمي معقولاً وهو باطل، وسمي كلاماً صدقاً وهو كذب وسمي جدلاً بالتي هي أحسن، وهو جدل بالباطل بغير علم.

ولهذا حصل من الذين لبسوا الحق بالباطل تبديل لما بدلوه من الدين وتحريف الكلم عن مواضعه. ومضاهاة لأهل الكتاب مما ذمهم الله عليه. والبخاري في أول كتاب خلق أفعال العباد ذكر الرد على المعطلة الذين يبدلون كلام الله من الجهمية وذكر من كلام السلف والأئمة فيهم ما عرف به مقصودهم.

والتبديل نوعان: أحدهما: أن يناقضوا خبره. والثاني: أن يناقضوا أمره. فإن الله بعثه بالهدى ودين الحق وهو صادق فيما أخبر به عن الله آمر بما أمر الله به كما قال: ﴿مَنْ يُطِعِ

(١) وردت في الأصل: تقى، ولعل الصواب ما أثبتناه.

الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[1]. وأهل التبديل الذين يضيفون إلى دينه وشرعه ما ليس منه، وهم أهل الشرع المبدل تارة يناقضونه في خبره، فينفون ما أثبته أو يثبتون ما نفاه كالجهمية الذين ينفون ما أثبته من صفات الله وأسمائه، والقدرية الذين ينفون ما أثبته من قدر الله ومشيئته وخلقه وقدرته.

والقدرية المجبرة الذين ينفون ما أثبته من عدل الله وحكمته ورحمته، ويثبتون ما نفاه من الظلم والعبث والبخل ونحو ذلك عنه وأمثال ذلك. ومسائل أصول الدين عامتها من هذا الباب، ثم أنهم أيضاً يوجبون ما لم يوجبه بل حرمه، ويحرمون ما لم يحرمه بل أوجبه، فيوجبون اعتقاد هذه الأقوال والمذاهب المناقضة لخبره وموالاة أهلها ومعاداة من خالفها. ويوجبون النظر المعين في طريقهم الذي أحدثوه كما أوجبوا النظر في دليل الإعراض الذي استدلوا به على حدوث الأجسام، وقالوا: يجب على كل مكلف أن ينظرفيه ليحصل له العلم بإثبات الصانع. قالوا: لأن معرفة الله واجبة ولا طريق إليها إلا هذا النظر وهذا الدليل، ولما علم كثير من موافقيهم أن الإستدلال بهذا الدليل لم يوجبه الرسول خالفوهم في إيجابهم مع موافقتهم لهم على صحته.

والتحقيق ما عليه السلف أنه ليس بواجب أمراً ولا هو صحيح خبراً بل هو باطل منهي عنه شرعاً. فإن الله تعالى لا يأمر بقول الكذب والباطل بل ينهى عن ذلك. لكن غلطوا حيث اعتقدوا أنه حق وأن الدين لا يقوم إلا على هذا الأصل الذي أصلوه. كما أن طوائف من أهل العبادة والزهد والإرادة والمحبة والتصوف سلكوا طرقاً ظنوا أنه لا يوصل إلى الله إلا بها. ثم منهم من يوجبها ويذم من لم يسلكها، ومنهم من لم ير أن سالكيها أفضل من غيرهم ويوسع الرحمة، لأنه قد علم أن الرسول والصحابة لم يأمروا بها الناس مع اعتقادهم أنها طرق صحيحة موصلة إلى رضوان الله، وهي عند التحقيق طرق مضلة إنما توصل إلى رضى الشيطان وسخط الرحمن، كالعبادات التي ابتدعها ضلال أهل الكتاب والمشركين وخالفوا بها دين المرسلين، فهؤلاء في الأحوال البدعية وأولئك في الأقوال البدعية.

والقول الحق هو القرآن، والحال الحق هو الإيمان، كما قال جندب وابن عمر: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً. وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ المُؤْمِنِ الذي يَقرأ القُرآن كَمَثَلِ الأُتْرجةَ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وريحُهَا طَيِّبٌ، ومَثَلُ المؤْمنِ الذي لا يَقْرأ القُرآن مَثَلُ التمرةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ ولا ريح لهَا، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذي يَقرأ القُرآن كَمَثَلِ الريحَانةِ رِيحُها طَيبٌ وطَعْمُهَا مُرٌ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذي لا يَقْرأُ القُرآن مَثَلُ الحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌ ولاَ رِيحَ لهَا».

(١) سورة النساء: الآية ٧٩.

فالنّاسُ أربعة أصناف: صاحب قول قرآني وَحَال إيماني، فهم أفضل الخلق، وصاحب قول قرآني وحال ليس بإيماني، وصاحب حال إيماني وليس له قول، ومن ليس له لا قول قرآني ولا حال إيماني. وكثير من المنتسبين إلى القول والكلام والعلم والنظر والفقه والإستدلال ابتدعوا أقوالاً تخالف القرآن. وكثير من المنتسبين إلى العمل والعبادة والإرادة والمحبة وحسن الخلق والمجاهدة ابتدعوا أحوالاً وأعمالاً تخالف الإيمان، وصار مع كل طائفة نوع من الحق الذي جاء به الرسول لكن ملبوس بغيره، وصار كثير من الطائفتين يُنكر ما عليه الأخرى مطلقاً. كما قالت اليهود: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء.

وفي كل من الطائفتين شبه أحد من أحد الأمتين، ففي المنتسبين إلى العلم إذا لم يوافقوا العلم النبوي ويعملوا به شبه من اليهود. وفي أهل العمل إذا لم يوافقوا العمل الشرعي ويعملوا بعلم شبه من النصارى. وصار كثير من أهل الكلام والرأي ينكرون جنس محبة الله وإرادته، كما صار كثير من أهل الزهد والتصوف ينكر جنس العلم والكلام والنظر. وأولئك الذين أنكروا محبة الله وإرادته بنوا ذلك على أصل لهم للقدرية المجيرة والنافية، وهو أن المحبة والإرادة والرضا والمشيئة شيء واحد، ولا يتعلق ذلك إلا بمعدوم وهو إرادة الفاعل أن يفعل ما لم يكن فعله، فاعتقدوا أن المحبة والإرادة لا تتعلق إلا بمعدوم. فالموجود لا يحب ولا يراد، والقديم الأزلي لا يحب ولا يراد، والباقي لا يحب ولا يراد. فأنكروا أن يكون الله محبوباً أو مراداً، وهم لإنكار كونه يحب أبلغ وأبلغ فلا يثبتون إلا مشيئته أن يخلق فقط وهي لا تتعلق إلا بمعدوم، فأما أن يحب موجوداً من خَلْقِهِ فهذا باطل عند الطائفتين، لكن المجبرة يقولون محبته هي مشيئته، وقد شاء خلق كل شيء فهو يحب كل شيء. والنفاة يقولون محبته هي إرادته إثابة المطيعين، وهي مشيئة خاصة، والذي جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة، وعليه مشايخ المعرفة وعموم المسلمين أن الله يحب ويحب كما نطق بذلك الكتاب والسنة في مثل قوله ﴿يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ﴾. ومثل قوله: ﴿والذينَ آمنُوا أشَدّ حُباً لله﴾[1] وقوله: ﴿قُل إنْ كُنْتُم تُحِبونَ الله فَاتبعوني يُحْبِبكُمُ الله﴾[2].

بل لا شيء يستحق أن يحب لذاته محبة مطلقة إلا الله وحده، وهذا من معنى كونه معبوداً فحيث جاء القرآن بالأمر بالعبادة والثناء على أهلها أو على المنيبين إلى الله والتوابين إليه أو الأوابين أو المطمئنين بذكره أو المحبين له ونحو ذلك. فهذا كله يتضمن محبته، وما لا يحب ممتنع كونه معبوداً ومألوهاً ومطمأناً بذكره، ومن أطيع لعوض يؤخذ منه أو لدفع ضرره فهذا

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣١.

ليس بمعبود ولا إله، بل قد يكون الشخص كافراً وظالماً يبغض ويلعن ومع هذا يعمل معه عمل بعوض فمن جعل العمل لله لا يكون إلا لذلك فلم يثبت الرب إلهاً معبوداً ولا رباً محموداً، وهو حقيقة قول النفاة من الجهمية والقدرية النافية والمثبتة، والله سبحانه وتعالى رغب في عبادته والعمل بما ذكره من الوعد ورهب من الكفر به والشرك بما ذكره من الوعيد وهو حق، لكنه لم يقل أن العابد لله والعامل له لا يحصل له إلا ما ذكر، بل وقد قال تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أخفي لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1]. وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: «أعددْتُ لِعِبَادي الصَّالحِين مَا لا عَينٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمعتْ ولا خَطَر عَلى قَلبِ بَشَرٍ»، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿ فَلا تعلم نفسٌ ما أُخْفِي لهُم مِن قُرَّةِ أَعْينٍ جَزاءً كَانُوا يَعْمَلون﴾. وقد ثبت في الحديث الصحيح عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ الله يَا أهل الجَنّةِ إنَّ لَكُم عِندي مَوْعِداً أريدُ أنْ أنجزكموهُ، فيقولون: مَا هُو ألَم تُثَقِّلْ مَوازِينَنَا وتُدخِلنَا الجَنّة وتُجرنَا مِن النَارِ؟ قَال: فَيُكشِفُ الحجاب فَينظرون إليه، فما أعطاهم شَيئاً أحبَّ إليهم مِن النَظرِ إليهِ، وهي الزيادة». وفي الحديث الذي رواه النسائي: لما صلى عمار فأوجز وقال: دعوت في الصلاة بدعاء سمعته من النبي ﷺ: «اللّهُمَّ بعلمك الغَيب، وقدرتك على الخَلقِ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاةُ خَيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغَيبِ والشّهادة، وكَلِمة الحَقِّ في الغَضَبِ والرِضا، والقصدُ في الفقرِ والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفُد، وقُرة عَينٍ لا تَنْقَطِعْ، وأسألك الرِضا بَعد القَضاء، وأسألك بَرْد العَيشِ بَعْد المَوْتِ، وأسألك لذَّة النَظَرِ إلى وجْهك، والشَوق إلى لِقَائِك مِنْ غَيرِ ضَرّاء مُضِرةٍ، ولا فِتنةٍ مُضِلّة، اللّم زيِّنَا بزينةِ الإيمان واجْعَلْنَا هُداة مُهْتَدِينَ». وروى نحو هذا من وجه آخر.

فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لم يعط أهل الجنة أحب إليهم من النظر إليه وسن أن يدعى بلذة النظر إلى وجهه الكريم، وأهل الجنة قد تنعموا من أنواع النعيم بالمخلوقات بما هو غاية النعيم، فلما كان نظرهم إليه أحب إليهم من كل أنواع النعيم علم أن لذة النظر إليه أعظم عند أهل الجنة من جميع أنواع اللذات. والجنة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، فما لذت أعينهم بأعظم من لذتها بالنظر إليه، واللذة تحصل بإدراك المحبوب، فلو لم يكن أحب إليهم من كل شيء ما كان النظر إليه أحب إليهم من كل شيء، وكانت لذته أعظم من كل لذة، والله تعالى وعد عباده المؤمنين بالجنة وهي إسم لدار فيها جميع أنواع اللذات المتعلقة بالمخلوق وبالخالق، كما أن النار إسم لدار فيها أنواع الآلام، لكن غلط من ظن أن التنعيم بالنظر إليه ليس

---

(١) سورة السجدة: الآية ١٧.

من نعيم أهل الجنة. وصار هؤلاء حزبين: حزباً أنكروا التنعيم بالنظر إليه وهم المنكرون للمحبة، حتى قال أبو المعالي ونحوه ممن ينكر محبته أنهم إذا رأوه لم يلتذوا بنفس النظر، بل يخلق لهم لذة ببعض المخلوقات مع النظر.

وكذلك قال من شاركهم في التجهم من أهل الوحدة كابن عربي قال: ما التذ عارف بمشاهدة قط. وادعى أبو المعالي أن إنكار محبته من أسرار التوحيد، وهو من أسرار توحيد الجهمية المعطلة المبدلة. وحكي عن ابن عقيل أنه سمع رجلاً يقول: أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، فقال له: هب أن له وجهاً أله وجه يلتذ بالنظر إليه. وهذا بناء على هذا الأصل، فإنه وشيخه أبا يعلى ونحوهما وافقوا الجهمية في إنكار أن يكون الله محبوباً، واتبعوا في ذلك قول أبي بكر بن الباقلاني ونحوه ممن ينكر محبة الله. وجعل القول بإثباتها قول الحلولية.

والجواب الثاني: أن طائفة من الصوفية والعباد شاركوا هؤلاء في أن مسمى الجنة لا يدخل فيه النظر إلى الله، وهؤلاء لهم نصيب من محبة الله تعالى والتلذذ بعبادته، وعندهم نصيب من الخوف والشوق والغرام، فلما ظنوا أن الجنة لا يدخل فيها النظر إليه صاروا يستخفون بمسمى الجنة ويقول أحدهم: ما عبدتك شوقاً إلى جنتك، ولا خوفاً من نارك. وهم غلطوا من وجهين:

أحدهما: أن ما يطلبونه من النظر إليه والتمتع بذكره ومشاهدته كل ذلك في الجنة.

الثاني: أن الواحد من هؤلاء لو جاع في الدنيا أياماً أو القي في بعض عذابها طار عقله وخرج من قلبه كل محبة. ولهذا قال سمنون:

ولـيس لـي فـي سـواك حظ فكيفما شئت فامتحني

إبتلى بعسر البول فصار يطوف على المكاتب ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب. وأبو سليمان لما قال: قد أعطيت من الرضا نصيباً لو ألقاني في النار لكنت راضياً. ذكر أنه لما ابتلي بمرض فقال: إن لم يعافني وإلا كفرت، أو نحو هذا، والفضيل بن عياض ابتلى بعسر البول فقال: بحبي لك الا فرجت عني. فبذل حبه في عسر البول، فلا طاقة لمخلوق بعذاب الخالق ولا غنى به عن رحمته.

وقد قال النبي ﷺ لرجل: «مَا تَدعُو في صلاتِك؟» قال: أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار أما أني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ. فقال: «حولها ندندن» ودخل على أعرابي قد صار مثل الفرخ فقال: «هل كنت تدعو الله بشيء؟» قال: كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي في في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال: «سبحان الله إنك لا تستطيعه ولا تطيقه، هلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

والعدوان في الإرادة والعبادة والعمل حصل من أعراضهم عن العلم الشرعي واتباع الرسول، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُم تُحِبون الله فاتبعُوني يُحبِبْكُمُ الله﴾[٢]. قال بعضهم: ليس الشأن في أن تحبه، الشأن في أن يكون هو يحبك، وهو إنما يحب من اتبع الرسول، وإلا فالمشركون وأهل الكتاب يدعون أنهم يحبونه، وأولئك غلطوا بنفي محبته وهؤلاء أثبتوا محبة شركية لم يثبتوا محبة توحيدية خالصة، وقد قال تعالى: ﴿ومِنْ النـاسِ مَن يَتَخِذُ مِنْ دُونِ الله أَنْدَاداً يُحبونَهُم كَحُبِّ الله، وَالّذينَ آمَنُوا أَشدُ حُباً لله﴾[٣].

فالأقسام ثلاثة: أولئك معطلة للمحبة، وحقيقة قولهم تعطيل العبادة مطلقاً، وهؤلاء مشركون في المحبة فهم مشركون في العبادة، وأولئك مستكبرون عن عبادته والكبر لليهود، وهؤلاء مشركون في عبادته والشرك للنصارى، وكل واحد من المستكبرين والمشركين ليسوا مسلمين، بل الإسلام هو الإستسلام لله وحده. ولفظ الإسلام يتضمن الإسلام ويتضمن إخلاصه لله، وقد ذكر غير واحد حتى أهل العربية كأبي بكر بن الأنباري وغيره.

ومن المفسرين من يجعلهما قولين كما يذكر طائفة منهم البغوي: إن المسلم هو المستسلم لله، وقيل: هو المخلص. والتحقيق: أن المسلم يجمع هذا وهذا، فمن لم يستسلم له لم يكن مسلماً، ومن استسلم لغيره [ولم][٤] يستسلم له، لم يكن مسلماً، ومن استسلم له وحده فهو المسلم كما في القرآن: ﴿بَلَىَ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجرهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيهُمْ وَلاَ هُمْ يحْزَنُون﴾[٥] وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ ديناً ممّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلّةَ إبرَاهيمَ حَنِيفاً وَاتّخَذَ الله إبراهيمَ خَليلاً﴾[٦] والإستسلام له يتضمن الإستسلام لقضائه وأمره ونهيه، فيتناول فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور: ﴿إِنّهُ مَنْ يَتّقِ وَيصبر فَإِنَّ الله لاَ يُضيعُ أَجْرَ المُحسنين﴾[٧]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن وران، حدثنا آدم عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله: ﴿بَلَىَ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله﴾، يقول: من أخلص لله، قال ابن أبي حاتم: وروى عن الربيع نحو ذلك، وقال: ذكر عن يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك عن حيوة بن شريح عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جُبير من أسلم وجهه لله قال: من أسلم أخلص وجهه قال: دينه. وقال أبو الفرج: أسلم بمعنى أخلص. وفي الوجه قولان أحدهما: أنه الدين، والثاني: العمل، وقال البغوي من أسلم وجهه لله أخلص دينه لله.

---

(١) سورة السجدة: الآية ١٧.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٣١.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٦٥.
(٤) وردت في الأصل: كم، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٥) سورة البقرة: الآية ١١٢.
(٦) سورة النساء: الآية ١٢٤.
(٧) سورة يوسف: الآية ٩٠.

وقيل: أخلص عبادته لله، وقيل خضع وتواضع لله، وأصل الإستسلام والخضوع، وخص الوجه لأنه إذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه، وهو محسن في عمله قيل: مؤمن، وقيل مخلص.

قلت: قول من قال خضع وتواضع لربه، هو داخل في قول من قال أخص دينه أو عمله أو عبادته له، فإن هنا إنما يكون إذا خضع له وتواضع له دون غيره، فإن العبادة والدين والعمل له لا يكون إلا مع الخضوع له والتواضع، وهو مستلزم لذلك، ولكن أولئك ذكروا مع هذا أن يكون هذا الإسلام لله وحده، فذكروا المعنيين الإستلزام، وأن يكون لله.

قول من قال خضع وتواضع لله يتضمن أنه أخلص عبادته ودينه لله، فإن ذلك يتضمن الخضوع والتواضع لله، يتضمن أيضاً أنه أخلص عبادته ودينه لله فإن ذلك يتضمن الخضوع والتواضع لله دون غيره، وأما ذكره التوجه فقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع، وتبين أن الله ذكر إسلام الوجه له، وذكر إقامة الوجه له في قوله﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِينِ﴾[1] وذكر توجيه الوجه له في قوله: ﴿إِني وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوات والأَرْضَ﴾[2] لأن الوجه إنما يتوجه إلى حيث توجه القلب، والقلب هو الملك، فإذا توجه الوجه نحو جهة كان القلب متوجهاً إليها، ولا يمكن للوجه أن يتوجه بدون القلب، فكان إسلام الوجه وإقامته وتوجيهه مستلزماً لإسلام القلب وإقامته وتوجيهه، وذلك يستلزم إسلام كله لله، وتوجيه كله لله، وإقامة كلها لله، وبسط الكلام على ما يناسب ذلك. وهذا حقيقة دين الإسلام.

لكن الذين أنكروا ذلك لهم شبهتان: إحدهما أن المحبة تقتضي المناسبة، قالوا وهي منتفية فلا مناسبة بين المحدث والقديم فيقال لهم: هذا كلام مجمل تعنون بالمناسبة الولادة أو المماثلة، نحو ذلك مما يجب تنزيه الرب عنه، فإن الشيء ينسب إلى أصله بأنه ابن فلان وإلى فرعه بأنه أبو فلان، وإلى نظيره بأنه مثل فلان، ولما سأل المشركون النبي ﷺ عن نسب ربه أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُو الله أَحَدٌ، الله الصمَدُ، لَمْ يَلِد ولَمْ يُولَدُ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ كفواً أحدٌ﴾[3] فلم يخرج من شيء ولا يخرج منه شيء ولا له مثل، فإن عنيتم هذا لم نسلم أن المحبة لا بد فيها من هذا.

وإن أردتم بالمناسبة أن يكون المحبوب متصفاً بمعنى يحبه المحب فهذا لازم للمحبة، والرب متصف بكل صفة تحب، وكل ما يحب فإنما هو منه، فهو أحق بالمحبة من كل محبوب،

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٧٩.
(٣) سورة الاخلاص: الآية ١.

وإذا كان الإنسان يحب الملائكة وهم من غير جنسه لما اتصفوا به من الصفات الحميدة، فالسبوح القدوس رب الملائكة والروح الذي كلما اتصفت به الملائكة وغيرهم فهو من جوده وإحسانه وهو العزيز الرحيم إذ كان المخلوق كثيراً ما يتصف بالعزة دون الرحمة، أو تكون فيه رحمة بلا عزة، وهو سبحانه العزيز الرحيم الغفور الودود المجيد. والودود فعول من الود[1].

وقال شعيب ﴿إنَّ ربي رحيمٌ ودودٌ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وهُو الغَفورُ الوَدُودُ﴾[3] فقرنه بالرحيم في موضع وبالغفور في موضع. قال أبو بكر ابن الانباري: الودود معناه المحب لعباده من قولهم: وددت الرجل أوده وداً ووداً، ويقال: وددت الرجل وداداً ووداداً ووداداً. وقال الخطابي: هو إسم مأخوذ من الود وفيه وجهان: أحدهما أن يكون فعولاً في محل مفعول كما قيل: رجل هيوب بمعنى مهيب، وفرس ركوب بمعنى مركوب.

والله سبحانه وتعالى مودود في قلوب أوليائه لما يعرفونه من احسانه إليهم. والوجه الآخر أن يكون بمعنى الود أي أنه يوده عباده الصالحين بمعنى أنه يرضى عنهم ويتقبل أعمالهم، ويكون معناه أن يوددهم إلى خلقه كقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُم الرَّحمَنُ وِداً﴾[4] قلت: قوله: ﴿سيجعلُ لَهمُ الرَّحمَنُ وداً﴾ فسروها بأنه يحبهم ويحببهم إلى عباده، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أحبَّ الله العبد نَادى يَا جبْريلُ اني أُحِبُ فلاناً فأحبهُ فَيُحبهُ جبريل، ثُمَّ يُنَادي في السمَاء إنَّ الله يُحِبُّ فُلاناً فَاحبوهُ فَيُحبهُ أهْلُ السَّمَاء، ثُمَّ يُوضعُ لَهُ القَبُولُ في الأرْضِ». وقال في البغض مثل ذلك. وقال عبد بن حميد انبأ عبيد الله بن موسى عن ابن ليلى عن الحكم، عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدّاً﴾ قال: يحبهم ويحببهم ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، وقال عبد[5]: أخبرني شبابة عن ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿سَيجعلُ لَهمُ الرَّحْمَنُ وِدّاً﴾ قال: يحبهم ويحببهم إلى المؤمنين.

أخبرنا عبد الرازق عن الثوري عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس ﴿سَيَجْعَلُ لَهم الرَّحْمَنُ وِدّاً﴾ قال: محبة، وهذا فيه إثبات حبه لهم بعد أعمالهم بقوله: ﴿سيَجعل لهم الرحمن وداً﴾ وهو نظير قوله: ﴿قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبُّون الله فَاتبِعُوني يُحْبِبْكُم الله﴾، فهو يحبهم إذا اتبعوا

---

(١) قال ابن الأثير: الودود في أسماء الله تعالى فعول بمعنى مفعول، من الود والمحبة، أو هو مفعول بمعنى فاعل أي يحب عباده الصالحين بمعنى يرضى عنهم.

(٢) سورة هود: الآية ٩٠.

(٣) سورة البروج: الآية ١٤.

(٤) سورة مريم: الآية ٩٧.

(٥) أي عبد بن حميد.

الرسول. ونظير قوله في الحديث الصحيح: «ولا يَزَالُ عَبدي يَتَقَرَّبُ إلي بالنَوافِلِ حَتى أحبُهُ فَإذا أحْبَبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بهِ وَيَدَهُ التي يَبطُشُ بها وَرِجْلَهُ التي يَمشي بهَا».

وكذلك قوله ﴿واحسِنوا إنَّ الله يُحِبُ المحسنين﴾[1] ﴿إنَّ الله يُحِبُّ التَوَّابين ويحب المتطهرين﴾[2] ﴿إنَّ الله يُحِبُّ المُتّقين﴾. ﴿إنَّ الله يُحِبُّ الّذين يُقَاتِلون في سبيلِهِ صفّاً كأنّهُمْ بُنيانٌ مرصوص﴾[3]. وهذه الآيات وأشباهها تقتضي أن الله يحب أصحاب هذه الأعمال فهو يحب التوابين، وإنما يكونون توابين بعد الذنب، ففي هذه الحال يحبهم، وهذا مبني على الصفات الإختيارية، فمن نفاها رد هذا كله، ولهم قولان: أحدهما: أن المحبة قديمة، فهو يحبهم في الأزل إذا علم أنهم يموتون على حال مرضية، ويقولون: إنَّ الله يحب الكفار في حال كفرهم إذا علم أنهم يموتون على الإيمان، ويبغض المؤمن إذا علم أنه يرتد، هذا قول ابن كلاب ومن تبعه. ثم منهم من يفسر المحبة بالإرادة. ومنهم من يقول هي هي زائدة على الإرادة.

والقول الثاني: يجعلون هذا من باب الفعل، فالمحبة عندهم إحسانه إليهم، والإحسان عندهم ليس فعلاً قائماً به بل بائناً عنه، والكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة والأدلة العقلية إنما تدل على القول الأول كما قد بسط في غير هذا الموضع، إذ المقصود هنا ذكر إسمه الودود، والأكثرون على ما ذكره ابن الأنباري وأنه فعول بمعنى فاعل هو الواد، كما قرنه بالغفور وهو الذي يغفر وبالرحيم وهو الذي يرحم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي ثنا عيسى بن جعفر الري، ثنا سفيان في قوله «إن ربي رحيم ودود» قال: محب، وقال: قرىء على يونس ثنا ابن وهب قال: وقال ابن زيد قوله: ﴿الودود﴾ قال: الرحيم، وقد ذكر فيه قولين:

القول الأول رواه من تفسير الوالبي عن ابن عباس قوله ﴿الودود﴾ قال الحبيب.

والثاني: قول ابن زيد الرحيم. وما ذكره الوالبي الحبيب قد يراد به المعنيان أنه يحب، فإن الله يحب من يحبه واولياؤه يحبهم ويحبونه، والبغوي ذكر الأمرين فقال: وللودود معنيان أن يحب المؤمنين، وقيل: هو بمعنى المودود أي محبوب المؤمنين. وقال أيضاً في قوله: ﴿وهُو

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٣) سورة الصف: الآية ٣.

الغَفُورُ الودُود﴾ أي المحب لهم، وقيل: معناه المودود كالحلوب والركوب بمعنى المحلوب والمركوب، وقيل: يغفر ويود أن يغفر، وقيل: المتودد إلى أوليائه بالمغفرة قلت: هذا اللفظ معروف في اللغة أنه بمعنى الفاعل كقول النبي ﷺ «تَزوجُوا الودُود الولُودَ» وفعول بمعنى فاعل كثير كالصبور والشكور، وأما بمعنى مفعول فقليل، وأيضاً فإن سياق القرآن يدل على أنه صح أراد أنه هو الذي يود عباده كما أنه هو الذي يرحمهم ويغفر لهم فإن شعيباً قال: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾، فذكر رحمته وده كما قال تعالى: ﴿وجَعَل بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً ورحْمَةً﴾[1]. وهو أراد وصفاً يبين لهم أنه سبحانه يغفر الذنب ويقبل على التائب وهو كونه ودوداً كما قال أن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ: «أن الله يَفْرحُ بتَوْبَةِ التَائبِ أشَدُّ مِنْ فَرحِ مَنْ فَقِد راحِلَتَهُ بأرض دوية[2] مُهلِكة ثُمَّ وجَدهَا بعد اليأسِ» فهذا الفَرحُ منه بتوبة التائب يناسب محبته له ومدته له، وكذلك قوله في الآية الأخرى ﴿وهُو الغَفُورُ الودُودُ﴾فإنه مثل قوله ﴿وهُو الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وأيضاً في كونه مودوداً أي محبوباً يذكر على الوجه الكامل الذي يتبين اختصاصه به مثل الإسم الإله فإن الإله المعبود هو مودود بذلك، ومثل اسمه الصمد مثل ذي الجلال.والإكرام، ونحو ذلك. وكونه مودوداً ليس بعجيب، وإنما العجب جوده وإحسانه، فإنه يتودد إلى عباده كما جاء في الأثر: «يَا عَبدِي كَمْ أتَودَّدُ إليك بالنِعمِ، وأنْت تَتَمَقتُ إليَّ بالمعاصي، ولا يَزالُ مَلِكٌ كَرِيمٌ يَصْعَدُ إليَّ مِنك بعَمَلٍ سَيءٍ» وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «مَنْ تَقَرَّب إليَّ شبراً تقربتُ إليهِ ذراعاً ومَنْ تَقَرَّبَ مني ذراعاً تَقَرَّبْتُ إليهِ بَاعاً ومَنْ أتَاني يمشي أتيتُهُ هَرْولة».

وجاء في تفسير اسمه: الحنان المنان، أن الحنان الذي يقبل على من أعرض عنه، والمنان الذي يجود بالنوال قبل السؤال، وأيضاً فمبدأ الحب والود منه لكن اسمه والودود يجمع المعنيين، كما قال الوالبي عن ابن عباس أنه الحبيب، ذلك أنه إذا كان يود عباده فهو مستحق لأن يوده العباد بالضرورة. ولهذا من قال أنه يحب المؤمنين قال: إنهم يحبونه، فإن كثيراً من الناس يقول أنه محبوب وهو لا يحب شيئاً مخصوصاً، لكن محبته بمعنى مشيئته العامة، ومن الناس من قال أنه لا يحب مع أنه يثبت محبته للمؤمنين، فالقسمة في المحبة رباعية، فالسلف وأهل المعرفة أثبتوا النوعين، قالوا: إنه يحب ويحب. والجهمية والمعتزلة تنكر الأمرين، ومن الناس من قال: أنه يحب المؤمنين. وأما هو فلا يحب شيئاً دون شيء، ومنهم من عكس فقال: بل هو يحب المؤمنين مع أن ذاته لا يحب كما يقولون أنه يرحم ولا يرحم، فإذا قيل: إن الودود

---

(١) سورة الروم: الآية ٢١.

(٢) أي الصحراء.

بمعنى الواد لزم أن يكون مودوداً بخلاف العكس، فالصواب القطع بأن الودود هو الذي يود، وإن كان ذلك متضمناً لأنه يستحق أن يود ليس هو بمعنى المودود فقط، ولفظ الوداد بالكسر هو مثل المودة والتواد، وذاك يكون من الطرفين كالتحاب، وهو سبحانه لما جعل بين الزوجين مودة ورحمة كان كل منهما يود الآخر ويرحمه، وهو سبحانه كما ثبت في الحديث الصحيح أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وقد بين الحديث الصحيح أن فرحه بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد ماله ومركوبه في مهلكة إذ أوجدهما بعد اليأس، وهذا الفرح يقتضي أنه أعظم مودة لعبده المؤمن من المؤمنين بعضهم لبعض، كيف وكل ود في الوجود فهو من فعله، فالذي جعل الود في القلوب هو أولى بالود كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِداً﴾ قال: يحبهم ويحببهم وقد دل الحديث الذي في الصحيحين على أن ما يجعله من المحبة في قلوب الناس هو بعد أن يكون هو قد أحبه، وأمر جبريل أن ينادي بأن الله يحبه فنادى جبريل في السماء أن الله يحب فلاناً فأحبوه، وبسط هذا له موضع آخر.

وفي مناجاة بعض الداعين ليس العجب من حبي لك مع حاجتي إليك، العجب من حبك لي مع غناك عني. وفي أثر آخر: يا عبدي وحقي إني لك محب فبحقي عليك كن لي محباً. وروى: يا داود حببني إلى عبادي وحبب عبادي إلي، مرهم بطاعتي فأحبهم، وذكرهم آلائي فيحبوني فإنهم لا يعرفون مني إلا الحسن الجميل، وهو سبحانه كما قال خلقه فإنه من نعمه على عباده ولهذا يقول: ﴿فبأيِ آلاَءِ رَبِّكُمَا تكَذِّبان﴾[1]. والخير بيديه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا حول ولا قوة إلا به، ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه، ووده سبحانه هو لمن تاب إليه وأناب إليه كما قال: ﴿إنَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَالحَاتِ سيَجعلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِداً﴾[2] وقال: ﴿إنَّ الله يُحِبُّ التَوَّابينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِرينَ﴾[3] فلا يستوحش أهل الذنوب وينفرون منه كأنهم حمر مستنفرة، فإنه ودود رحيم بالمؤمنين يحب التوابين ويحب المتطهرين.

ولهذا قال شعيب: ﴿واستَغْفِروا رَبَّكُمْ ثُم تُوبُوا إليه إنَّ رَبي رَحيمٌ وَدودٌ﴾[4]. وقال هنا: ﴿وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ﴾. فذكر الودود في الموضعين لبيان مودته للمذنب إذا تاب إليه بخلاف القاسي الجافي الغليظ الذي لا ود فيه.

---

(١) سورة الرحمن: الآية ١٣.

(٢) سورة مريم: الآية ٩٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٤) سورة هود: الآية ٩٠.

والحجة الثانية لهم قالوا: إن الإرادة والمحبة لا تتعلق إلا بمعدوم يراد فعله، فإنه لو جاز أن يراد الموجود وأن يراد القديم، لجاز إن يكون العالم قديماً مع كونه مراداً مقدوراً، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة، فإن القائلين أنه موجب بذاته والعالم قديم، منهم من يصفه بالإرادة كأبي البركات وغيره قالوا: ومن المعلوم بالإضطرار للعقلاء إذ قالوا هذا الأمر حصل بالإرادة أن يكون محدثاً كائناً بعد إن لم يكن، ولهذا لا يجوز أن يقال إن قدرته ومشيئته تعلقت بوجوده ولا ببقائه، ولا بكونه حياً، ومن قال أن صفاته قديمة الأعيان لا يقول إن كلامه وإرادته حصلت بإرادته وقدرته، فيقال هذا الذي قالوه صحيح لكن هنا نوعان أحدهما: إرادة أن الشيء ويكون فهذه لا تكون إلا مع حدوثه، والثانية: محبة نفس ذاته من غير أن يفعل في الذات شيء، فهذه التي تتعلق بالموجود والباقي والقديم وإرادة الفعل تابعة لهذه، فإنه لولا أن تكون الإرادة متعلقة بنفس الشيء الموجود امتنع أن يراد إيجاده، فإن من أراد أن يبني بيتاً ليسكنه إنما مراده نفس البيت لسكناه والإنتفاع، وإنما البناء وسيلة إلى ذلك، ولولا إرادة الغاية المقصودة بالذات لم ترد الوسيلة، وإذا بناه فهو مريد له بعد البناء، ولهذا يكره خرابه وزواله، وكذلك من أراد أن يلبس ثوباً فلبسه فهو في حال اللبس مريد به، فمن أراد إحداث أمر وفعله كانت إرادة فعله لغاية مقصودة بعد الفعل هي العلة الغائبة والفعل المطلوب لغاية لفاعله إرادتان، إرادة الفعل وإرادة الغاية، وهذه هي الأصل وتلك تبع لهذه، والإرادة إرادة لا تتعلق بالمعدوم من جهة كونه معدوماً، بل تتعلق بوجود الفعل لكن يمتنع أن يراد فعله إلا إذا كان معدوماً.

فالعدم شرط في إرادة فعله، ولهذا جعل من جملة علل الفعل، ولهذا كان جماهير العقلاء مطبقين على أن كل مفعول فهو حادث، وكل ما أريد أن يفعل فإنه يكون حادثاً، وكل ما تعلقت المشيئة والقدرة بفعله فهو حادث، ثم من الناس من يقول هذا مختص بكونه مفعولاً بالإختيار، وإلا إذا كان معلولاً لعلة موجبة لم يلزم حدوثه وهو غلط، بل كل ما فعل فلا يكون إلا محدثاً سواء كان ذلك ممكناً أو ممتنعاً بل نفس كونه مفعولاً مستلزم حدوثه، ونفس تصور العلم بكونه مفعولاً يوجب العلم بحدوثه وإن لم يخطر بالبال كونه مفعولاً بالقدرة والإختيار، ثم قد يقال: ما من مفعول إلا وهو مفعول بالإختيار، والقديم إذا قدر فاعلاً بلا مشيئة كان ذلك ممتنعاً، والموجب بالذات إذا قيل هو موجب بذاته المتصفة بمشيئته وقدرته لما يشاؤه، وهذا حق وهو مستلزم لكونه فاعلاً بمشيئته وقدرته، وأما موجب بلا مشيئة أو موجب يقارنه موجبه، فهذان باطلان وبهما ضل من ضل من المتفلسفة القائلين بقدم الفلك، ونفي الصفات، ولكن من أراد إحداث شيء وأحدثه لم يجب أن تنقطع إرادته، بل قد يكون مريداً له ما دام موجوداً، ولولا أنه مريد لوجوده لما فعله، فكلما شاء الرب وجوده فهو مريد لإحداثه وبقائه ما دام باقياً، وأما الإرادة

والمحبة المتعلقة فليست إرادة فعل فيه بل هي محبة ذاته، وكل إرادة ومحبة فلا بد أن تنتهي إلى محبوب لذاته، وكل فاعل بالإرادة فإرادته تستلزم محبة عامة لأجلها فعل، فالحب أصل وجود كل موجود والرب تعالى يحب نفسه.

ومن لوازم حبه نفسه أنها محبة مريدة لما يريد أنه يريد أن يفعله، وما أراد فعله فهو يريده لغاية يحبها، فالحب هو العلة الغائية التي لأجله كان كل شيء، والمتفلسفة يصفونه بالإبتهاج والفرح كما جاءت به النصوص النبوية، لكنهم يقصرون في معرفة هذا وأمثاله من الأمور الإلهية، فإنهم يقولون: اللذة إدراك الملائم من حيث هو ملائم وهو مدرك لذاته بأفضل إدراك فهو أفضل مدرك لأفضل مدرك بأفضل إدراك، وقد قصروا في ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن اللذة والفرح والسرور ولابهجة ليس هو مجرد الإدراك موجب له ولا بد في وجوده من محبة. فهنا ثلاثة أمور محبة وإدراك لمحبوب ولذة تحصل بالإدراك، وهذا في اللذات الدنيوية الحسية وغيرها فإن الإنسان يشتهي الحلو ويحبه، فإذا ذاقه التذ بذوقه والذوق هو الإدراك، وكذلك في لذات قلبه يحب الله، فإنه إذا ذكره وصلى له وجد حلاوة ذلك كما قال ﷺ: «جُعِلَتْ قُرة عيني في الصلاةِ»، وأهل الجنة إذا تخلى لهم فنظروا إليه قال: فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظرِ إليه، والله أعلم.

***

فصل
محبة الله والإرادة

في تمام القول في محبة الله وانقسام المراد إلى ما يراد لذاته وإلى ما يراد لغيره، ثم ذلك الغير لا بد أن يكون مراداً لذاته، فالمراد الحركة لازم لجنس الإرادة، والإرادة لازمة لجنس الحركة، فإن الحركة القسرية مستلزمة للحركة الإرادية، والحركة الإرادية مستلزمة لمراد لذاته، فكان جنس الحركات الموجودة في العالم مستلزمة للمراد لذاته، وهو المعبود الذي يستحق العبادة لذاته، وهو الله لا إله إلا هو، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل، وكل عامل لا يكون عمله لله بل لغيره وهو المشرك فإنه كما قال تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أو تهوي به الريحُ في مَكانٍ سَحِيقٍ﴾[1]. فإن قوام الشيء بطبيعته الخاصة به، فالحي قوامه بطبيعته المستلزمة لحركته الإرادية، وقوامها بالمراد لذاته، فإذا لم يكن حركتها لإرادة المعبود لذاته لم يكن لنفسه قوام، بل بقيت ساقطة خارة كما ذكر الله تعالى، ولهذا يهوي في الهاوية، وهو ذنب لا يغفر لأنه فسد الأصل، كالمريض الذي فسد قلبه لا ينفع مع ذلك إصلاح أعضائه، ولفظ دعاء الله في القرآن يراد به دعاء العبادة ودعاء المسألة، فدعاء العبادة يكون الله هو المراد به، ودعاء المسألة يكون المراد منه كما في قول المصلي: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. فالعبادة إرادته، والإستعانة وسيلة إلى العبادة إرادة المقصود، وإرادة الإستعانة إرادة الوسيلة إلى المقصود، ولهذا قدم قوله: إياك نعبد، وإن كانت لا تحصل إلا بالإستعانة، فان العلة الغائية مقدمة في التصور والقصد وإن كانت مؤخرة في الوجود والحصول، وهذا إنما يكون لكونه هو المحبوب لذاته.

لكن المراد به محبة مختصة به على سبيل الخضوع له والتعظيم وعلى سبيل تخصيصها به، فيعبر عنها بلفظ الإنابة والعبادة ونحو ذلك إذا كان لفظ المحبة جنس عام يدخل فيه أنواع كثيرة، فلا يرضى لله بالقدر المشترك، بل إذا ذكر من يحب غير الله، قال من يحب غير

---

(١) سورة الحج: الآية ٣١.

الله، قال تعالى: ﴿والذين آمنوا أشدُّ حُباً لله﴾ وإذا ذكر محبتهم لربهم ذكرت محبته وجهادهم كما في قوله ﴿فَسَوفَ يأتي الله بقوم يُحبُّهم وَيُحِبونَهُ أذلةٍ على المؤمنينَ أعزَّة على الكَافرينَ يُجَاهِدُونَ في سبيلِ الله وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائمٍ﴾[1]. وفي مثل قوله: ﴿أَحَبُّ إليكم مِنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٌ في سَبيلِهِ﴾[2]. ولهذا كانت القلوب تطمئن بذكره كما قال تعالى: ﴿ألَا بِذِكْرِ الله تَطمئِنُّ القُلوبُ﴾[3]. فتقديم المفعول يدل على أنها لا تطمئن إلا بذكره وهو تعالى: إذا ذكر وجلت فحصل لها اضطراب ووجل، لما تخافه من دونه وتخشاه من فوات نصيبها منه. فالوجل إذا ذكر حاصل بسبب من الإنسان، وإلا فنفس ذكر الله يوجب الطمأنينة، لأنه هو المعبود لذاته والخير كله منه قال تعالى: ﴿ نَبِيء عِبَادِيَ أنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ وأن عَذَابِيَ هُوَ العَذَابُ الأليمُ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿إعلموا أنَّ الله شَدِيدُ العِقَاب وأنَّ الله غَفُورٌ رَحيمٌ﴾. وقال علي رضي الله عنه: لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن عبد إلا ذنبه. فالخوف الذي يحصل عند ذكره هو بسبب من العبد، وإلا فذكر الرب نفسه يحصل الطمأنينة والأمن، فما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ـ كما قال ذلك المريض الذي سئل كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال النبي ﷺ: «مَا اجتَمَعَا في قَلبِ عَبْدٍ في مثلِ هذا المَوطِنْ إلا أعطَاهُ الله مَا يَرجُوا ممّا يَخَافُ».

ولم يقل بذكر الله توجل القلوب [بل][5] كما قال: ألا بذكر الله تطمئن القلوب، بل قال: إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، ثم قال: ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾، وإنما يتوكلون عليه لطمأنينتهم إلى كفايته، وأنه سبحانه حسب من توكل عليه يهديه وينصره ويرزقه بفضله ورحمته وجوده، فالتوكل عليه يتضمن الطمأنينة إليه والاكتفاء به عما سواه. وكذلك قال في الآية الأخرى ﴿فَإلهُكُمْ إلَهٌ وَاحدٌ فَلَهُ أَسلِمُوا وَبَشِّر المُخبتينَ الّذينَ إذا ذُكِرَ الله وَجَلَتْ قُلُوبُهم والصَّابرِينَ عَلى ما أصَابِهم والمُقيمي الصَّلاةَ، وَممّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقونَ﴾[6]، فهم مخبتون، والمخبت: المطمئن الخاضع لله، والأرض الخبت المطمئنة، وروى ابن أبي حاتم من حديث ابن مهدي عن الثوري عن ابن أبي نجيح ﴿وبشر المخبتين﴾ قال: المطمئنين، وعن الضحاك: المتواضعين، فوصفهم بالطمأنينة مع الوجل كما وصفهم هناك بالتوكل عليه مع الوجل، وكما قال في وصف القرآن [أنه][7] ﴿تقشعر منه الجلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾، فذكر أنه بعد الإقشعرار تلين جلودهم وقلوبهم

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.
(٢) سورة التوبة: الآية ٢٥.
(٣) سورة الرعد: الآية ٣٠.
(٤) سورة الحجر: الآية ٤٩.
(٥) وردت في الأصل: كما، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٦) سورة الحج: الآية ٣٤ و ٣٥.
(٧) زيدت على الأصل لسياق العبارة.

إلى ذكر الله، فذكره بالذات يوجب الطمأنينة، وإنما الإقشعرار والوجل عارض بسبب ما في نفس الإنسان من التقصير في حقه والتعدي لحده، فهو كالزبد [لا][1] ينفع الناس [فيذهب][2] جفاء، وما ينفع الناس يمكث في الأرض فالخوف مطلوب لغيره ليدعو النفس إلى فعل الواجب وترك المحرم، وأما الطمأنينة بذكره وفرح القلب به ومحبته فمطلوب لذاته، ولهذا يبقى معهم هذا في الجنة فيلهمون التسبيح كما يلهمون النفس.

والمتفلسفة رأوا اللذات في الدنيا ثلاثة: حسية ووهمية وعقلية، والحسية في الدنيا غايتها دفع الألم، والوهمية خيالات وأضغاث، واللذة الحقيقة هي العلم، فجعلوا جنس العلم غاية، وغلطوا من وجوه: أحدها: أن العلم بحسب المعلوم محبوباً تكمل النفس بحبه كان العلم به كذلك، وإن كان مكروهاً كان العلم به لحذره ودفع ضرره، كالعلم بما يضر الإنسان من شياطين الإنس والجن، فلم يكن المقصود نفس العلم بل المعلوم، ولهذا قد يقولون: سعادتها في العلم بالأمور الباقية، وأنها تبقى ببقاء معلومها، ثم يظنون أن الفلك والعقول والنفوس أمور باقية، وأن بمعرفة هذه تحصل سعادة النفس. وأبو حامد في مثل معراج السالكين ونحوه يشير إلى هذا، فإن كلامه برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة، ففيه فلسفة مشوبة بإسلام، وإسلام مشوب بفلفسة، ولهذا كان في كتبه كالأحياء وغيره يجعل المعلوم بالأعمال، والأعمال كلها إنما غايتها هو العلم فقط، وهذا حقيقة قول هؤلاء الفلاسفة، وكان يعظم الزهد جداً ويعتني به أعظم من اعتنائه بالتوحيد الذي جاءت به الرسل، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، فإن هذا التوحيد يتضمن محبة الله وحده، وترك محبة المخلوق مطلقاً إلا إذا أحبه الله فيكون داخلاً في محبة مع الله، فإن هذا شرك، وهؤلاء المتفلسفة إنما يعظمون تجريد النفس عن الهيولى، وهي المادة، وهي البدن، وهو الزهد في أغراض البدن وهو الزهد في الدنيا، وهذا ليس فيه إلا تجريد النفس عن الأشتغال بهذا فتبقى النفس فارغة فيلقي إليها الشيطان ما يلقيه، ويوهمه أن ذلك من علوم المكاشفات والحقائق، وغايته وجود مطلق هو في الأذهان لا في الأعيان، ولهذا جعل أبو حامد السلوك إلى الله ثلاثة منازل بمنزلة السلوك إلى مكة، فإن السالك إليها له ثلاثة أصناف من الشغل: الأول تهيئه الأسباب كشراء الزاد والرحالة وخرز الرواية، والثاني: السلوك، ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلاً بعد منزل، والثالث: الاشتغال بأركان الحج ركناً بعد ركن، ثم بعد النزوع عن لبسة الإحرام، وطواف الوداع ، استحق التعرض للملك والسلطنة

---

(١) زيدت على الأصل لسياق العبارة.

(٢) وردت في الأصل: مع ما، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٣) وردت في الأصل: الزبد يذهب، ولعل الصواب ما أثبتناه.

قال: فالعلوم ثلاثة: قسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات، وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات، وطلوع تلك العقبة الشامخة التي عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقون، قال: فهذا سلوك للطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله، وكما لا يغني علم المنازل وطريق البوادي دون سلوكها. فكذا لا يغني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب، لكن المباشرة دون العلم غير ممكن قال: وقسم ثالث يجري مجرى نفس الحج وأركانه، وهو العلم بالله وصفاته وملائكته وأفعاله، وجميع ما ذكرناه في تراجم علم المكاشفة، قال: وههنا نجاة وفوز بالسعادة، والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد وهو السلامة، وأما الفوز بالسعادة فلا ينالها إلا العارفون، فهم المقربون المنعمون في جوار الله بالروح والريحان وجنة ونعيم.

وأما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ فَرُوحٌ وَرَيحانٌ وَجَنَّةُ نَعيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمين﴾[1]. وقال: وكل من لم يتوجه إلى المقصد أو انتهض إلى جهته لا على قصد الإمتثال بالأمر والعبودية بل لغرض عاجل، فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين، فله نزل من حميم وتصليه جحيم قال: واعلم أنه هذا هو الحق اليقين عند العلماء الراسخين في العلم، أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن، ومشاهدة الباطن أقوى وأجل من مشاهدة الأبصار، وترقوا فيه عن حد التقليد إلى الاستبصار. قلت: وكلامه من هذا الجنس كثير، ومن لم يعرف حقيقة مقصده فهو له مثل هذا الكلام، لأن صاحبه يتكلم بخبره ومعرفة بما يقوله لا بمجرد تقليد لغيره، لكن الشأن فيما خبره هل هو حق مطابق، ومن سلك مسلك المتكلمين الجهمية والفلاسفة ولم يكن عنده خبرة بحقائق ما بعث به رسوله وأنزل به كتبه، بل ولا بحقائق الأمور عقلاً وكشفاً فإن هذا الكلام غايته.

أما من عرف حقيقة ما جاءت به الرسل أو عرف مع ذلك بالبراهين العقلية والمكاشفات الشهودية صدقهم فيما أخبروا به، فإنه يعلم غاية مثل هذا الكلام وأنه إنما ينتهي إلى تعطيل، ولهذا ذاكرني مرة شيخ جليل له معرفة وسلوك وعلم في هذا فقال: كلام أبي حامد يشوقك فتسير خلفه وهو يشوقك فتسير خلفه منزلاً بعد منزل، فإذا هو ينتهي إلى لا شيء، وهذا الذي جعله هنا الغاية، وهو معرفة الله وصفاته وأفعاله وملائكته قد ذكره في المضنون به على غير أهله، وهو فلسفة محضة قول المشركين من العرب خير منه دع قول اليهود والنصارى، بل قوم نوح وهود وصالح ونحوهم كانوا يقرون بالله وبملائكته وصفاته وأفعاله خيراً من هؤلاء، لكن

(١) سورة الواقعة: الآية ٩١.

لم يقروا بعبادته وحده لا شريك له، ولا بأنه أرسل رسولاً من البشر، وهذا حقيقة قول هؤلاء، فإنهم لا يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ولا يثبتون حقيقة الرسالة، بل النبوة عندهم فيض من جنس المنامات، وأولئك الكفار ما كانوا ينازعون في هذا الجنس، فإن هذا الجنس موجود لجميع بني آدم، ومع هذا فقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم كانوا يقرون بالملائكة كما قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكم صَاعِقَةً مثلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إذ جَاءتهُم الرُسُلُ مِن بَينِ أيديهِمْ وَمِنْ خَلفِهِمْ أَلاَّ تَعبُدُوا إلا الله قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبنَا لأنزَلَ مَلائِكةً﴾[1] وقال قوم نوح: ﴿مَا هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثلُكُم مَا سَمِعنَا بِهَذا في آبَائِنا الأولين﴾ [2] بل فرعون قال لموسى: ﴿أَمْ أَنَا خَيرٌ مِنْ هَذا الَّذي هُوَ مَهينٌ وَلاَ يَكَادُ يبين، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مُقْتَرِنين فاستخفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعوهُ أنهم كَانُوا قَوماً فَاسِقينَ﴾[3].

والعبادات كلها عندهم مقصودها الأخلاق، والشريعة سياسة مدنية، والعلم الذي يدعون الوصول إليه لا حقيقة لمعلومه في الخارج، والله أرسل رسوله بالإسلام والإيمان بعبادة الله وحده وتصديق الرسول فيما أخبر، فالأعمال عبادة الله، والعلوم تصديق الرسول، وكان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص، وتارة﴿قُولُوا آمنَّا بالله وَمَا أُنْزِلَ إلينَا﴾[4] الآية... فإنها تتضمن الإيمان والإسلام، وبالآية من آل عمران ﴿قُلْ يا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالُوا إلى كَلِمَة سَواء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[5]. والذين سلكوا خلف أبي حامد أو ضاهوه في السلوك كابن عربي صرحوا بحقيقة ما وصلوا إليه، وهو أن الوجود واحد، وعلموا أن أبا حامد لا يوافقهم على هذا فاستضعفوه ونسبوه إلى أنه مقيد بالشرع والعقل، وأبو حامد بين علماء الفلاسفة، علماء المسلمين يذمونه على ما شارك فيه الفلاسفة مما خالف دين الإسلام، والفلاسفة يعيبونه على ما بقي معه من الإسلام، وعلى كونه لم ينسلخ عنه بالكلية إلى قول الفلاسفة، ولهذا كان الحفيد ابن رشد ينشد فيه:

يوماً يَمان مَا جِئتَ ذا يمن ... وإنْ لَقيتَ مَعدياً فعدْنانِ

وأبو نصر القشيري وغيره ذَموه علىَ الفلسفة وأنشدوا فيه أبياتاً معروفة يَقولون فيها:

بَرِئْنَا إلى الله مِن مَعشرٍ ... بهم مَرَضٌ مِنْ كتابِ الشَفا[6]
وَكم قُلتُ يَا قَوم أنتُم عَلى ... شَفَا حُفْرةٍ مَا لَها مِن شَفَا
فَلَما استَهَانُوا بِتَعْرِيفِنَا ... رجعنا إلى الله حَتى كَفَا
فَمَاتوا عَلى دينِ برسطَالس ... وَعِشْنَا عَلى سُنّةِ المُصْطفى

(١) سورة السجدة: الآية ١٣.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٢٤.
(٣) سورة الزخرف: الآية ٥٢ ــ ٥٤.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٣٦.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٦٤.
(٦) أي كتاب الشفا لابن سينا.

ولهذا كانوا يقولون: أبو حامد قد أمرضه الشفاء، وكذلك الطرطوسي والمازري وابن عقيل، وأبو البيان وابن حمدين، ورفيق أبي حامد أبو نصر المرغيناني، وأمثال هؤلاء لهم كلام كثير في ذمه على ما دخل فيه من الفلسفة، ولعلماء الأندلس في ذلك مجموع كبير، ولهذا لما سلك خلفه ابن عربي وابن سبعين، كان ابن سبعين في كتاب اليد وغيره يجعل الغاية هو المقرب وهو نظير المقرب في كلام أبي حامد، ويجعل المراتب خمسة: أدناها الفقيه، ثم المتكلم، ثم الفيلسوف، ثم الصوفي الفيلسوف وهو السالك، ثم المحقق.

وابن عربي له أربع عقائد: الأولى: عقيدة أبي المعالي واتباعه مجردة عن حجة. والثانية: تلك العقيدة مبرهنة بحججها الكلامية. والثالثة: عقيدة الفلاسفة [كإبن][1] سينا وأمثاله الذين يفرقون بين الواجب والممكن. والرابعة: التحقيق الذي وصل إليه وهو أن الوجود واحد، وهؤلاء يسلكون مسلك الفلاسفة الذي ذكره أبو حامد في ميزان العمل، وهو أن الفاضل له ثلاث عقائد: عقيدة مع العوام يعيش بها في الدنيا كالفقه مثلاً، وعقيدة مع الطلبة يدرسها لهم كالكلام. والثالثة لا يطلع عليه أحد إلا الخواص.

ولهذا صنف الكتب المضنون بها على غير أهلها وهي فلسفة محضة سلك فيها مسلك إبن سينا، ولهذا يجعل اللوح المحفوظ هو النفس الفلكية إلى أمور أخرى قد بسطت في غير هذا الموضع ذكرنا ألفاظه بعينها في مواضع منها الرد على ابن سبعين وأهل الوحدة وغير ذلك، فإنه لما انتشر الكلام في مذهب أهل الوحدة، وكنت لما دخلت إلى مصر بسببهم، ثم صرت في الإسكندرية جاءني من يعرف حقيقة أمرهم وقال: إن كنت تشرح لنا كلام هؤلاء وتبين مقصودهم ثم تبطله، وإلا فنحن لا نقبل منك كما لا نقبل من غيرك، فإن هؤلاء لا يفهمون كلامهم، فقلت: نعم أنا أشرح لك ما شئت من كلامهم مثل كتاب اليد والإحاطة لابن سبعين وغير ذلك، فقال لي: لا، ولكن لوح الأصالة فإن هذا يعرفون وهو في رؤوسهم؛ فقلت له: هاته، فلما أحضره شرحته بيناً حتى تبين له حقيقة الأمر، وإن هؤلاء ينتهي أمرهم إلى الوجود فقال: هذا حق.

وذكر لي أنه تناظر إثنان: متفلسف سبعيني، ومتكلم على مذهب ابن التومرت فقال ذاك: نحن شيخنا يقول بالوجود المطلق، فقال الآخر: ونحن كذلك أمامنا. قلت له: والمطلق في الأذهان لا في الأعيان فتبين له ذلك وأخذ يصنف في الرد عليهم، ولم أكن أظن ابن التومرت

---

(١) وردت في الأصل إبن، ولعل الصواب ما أثبتناه.

يقول بالوجود المطلق حتى وقفت بعد هذا على كلامه المبسوط فوجدته كذلك. وأنه كان يقول الحق حقان: الحق المقيد والحق المطلق وهو الرب، وتبينت أنه لا يثبت من الصفات ولا ما يتميز موجود عن موجود، فإن ذلك يقيد شيئاً من الإطلاق، وسألني هذا عما يحتجون به من الحديث مثل الحديث المذكور في العقل وأن أول ما خلق الله تعالى العقل، ومثل الحديث: كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف، وغير ذلك. فكتبت له جواباً مبسوطاً وذكرت أن هذه الأحاديث موضوعة، وأبو حامد وهؤلاء لا يعتمدون على هذا، وقد نقلوه إما من رسائل أخوان الصفا، أو من كلام أبي حيان التوحيدي، أو من نحو ذلك، وهؤلاء في الحقيقة هم من جنس الباطنية الإسماعيلية، ولكن أولئك يتظاهرون بالتشيع والرفض، وهؤلاء غالبهم يميلون إلى التشيع ويفضلون علياً رضي الله عنه، ومنهم من يفضله بالعلم الباطن ويفضل أبا بكر رضي الله عنه في العلم الظاهر، كأبي الحسن الحرلي وفيه نوع من مذهب الباطنية الإسماعلية لكن لا يقول بوحدة الوجود مثل هؤلاء ولا أظنه يفضل غير الأنبيآء عليهم فهو أنبل من هؤلاء من وجه، لكنه ضعيف المعرفة بالحديث والسير وكلام الصحابة والتابعين، فيبني له أصولاً على أحاديث موضوعة، ويخرج كلامه من تصوف وعقليات وحقائق، وهو خير من هؤلاء، وفي كلامه أشياء حسنة صحيحة وأشياء كثيرة باطلة، وانَّ سبحانه وتعالى أعلم.

والثاني: أن صلاح النفس في محبة المعلوم المعبود وهي عبادته لا في مجرد علم ليس فيه ذلك، وهم جعلوا غاية النفس التشبه بالله على حسب الطاقة، وكذلك جعلوا حركة الفلك للتشبه به، وهذا ضلال عظيم، فإن جنس التشبه يكون بين إثنين مقصودهما واحد كالإمام والمؤتم به.

وليس الأمر هنا كذلك بل الرب هو معبود لذاته، وهو يعرف نفسه، ويحب نفسه ويثني على نفسه والعبد نجاته وسعادته في أن يعرف ربه ويحبه ويثني عليه والتشبه به أن يكون هو محبوباً لنفسه مثنياً بنفسه على نفسه، وهذا فساد في حقه وضار به، والقوم أضل من اليهود والنصارى بل ومن مشركي العرب، فإنه ليس الرب عندهم لا رب العالمين وخالقهم ولا إلههم ومعبودهم.

ومشركو العرب كانوا يقرون بأنه خالق كل شيء، وما سواه مخلوق له محدث، وهؤلاء الضالون لا يعترفون بذلك كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والوجه الثالث: أنهم يظنون أن ما عندهم هو علم بالله، وليس كذلك بل هو جهل. والرازي لما شاركهم في بعض أمورهم صار حائراً معترفاً بذلك لما ذكر أقسام اللذات، وأن اللذة العقلية هي الحق وهي لذة العلم، وأن شرف العلم بشرف المعلوم وهو الرب ، وأن العلم به ثلاث مقامات: العلم بالذات والصفات والأفعال.

قال: وعلى كل مقام عقدة، فالعلم بالذات فيه أن وجود الذات هل هو زائد عليها أم لا؟ وفي الصفات هل الصفات زائدة على الذات أم لا؟ وفي الأفعال هل الفعل مقارن أم لا؟ ثم قال: ومن الذي وصل إلى هذا الباب أو من الذي ذاق من هذا الشراب.

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُ

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾، واقرأ في النفي ﴿ليس كمثله شيء﴾ ﴿ولا يحيطون به علماً﴾، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

فالسعادة هو أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله وما يقرب إليه، ويعلم أن السعادة في أن يكون الله هو المحبوب المراد المقصود، ولا يحتجب بالعلم عن المعلوم، كما قال الشيخ العارف للغزالي لما قال له: أخلصت أربعين صباحاً فلم يتفجر لي شيء! فقال: يا بني أنت للحكمة لم يكن الله هو مرادك، والإخلاص لله أن يكون الله هو مقصود المرء ومراده، فحينئذ تتفجر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، كما في حديث مكحول عن النبي ﷺ «مَنْ أَخْلَصَ لله أربعينَ صَبَاحاً تَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ» ولهذا تقول العامة: قيمة كل امرىء ما يحسن، والعارفون يقولون: قيمة كل امرىء ما يطلب، وفي الإسرائيليات يقول الله تعالى: «إني لا أنظر إلى الكلام الحكيم، وإنما أنظر إلى همته». فالنفس لها قوة الإرادة وأعرضوا عن إرادتها، وهي تقوم بمرادها لا بمجرد ما تشعر به فإنها تشعر بالخير والشر، والنافع والضار، ولكن لا يجوز أن يكون مرادها ومحبوبها إلا ما يصلحها وينفعها وهو الإله المعبود الذي لا يستحق العبادة غيره، وهو الله لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم مع هذا يكون العلم حقاً، وهو ما أخبرت به الرسل، فالعلم الحق هو ما أخبروا به والإرادة النافعة إرادة ما أمروا به، وذلك عبادة الله وحده لا شريك له، فهذا هو السعادة وهو الذي اتفقت عليه الأنبيآء كلهم، فكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وذلك إنما يكون بتصديق رسله وطاعتهم، فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين الإسلام والإيمان عبادة الله وحده وتصديق رسله، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قال تعالى:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الذينَ أُرْسِلَ إليْهِمْ ولنسألنَّ المُرْسَلينَ﴾[1] قال أبو العالية: هما خصلتان يسأل عنهما كل أحد يقال لمن كنت تعبد وبماذا أجبت المرسلين وقد بسط هذا في غير هذا الموضع والله أعلم.

وأتبع لها أسعد الناس في الدنيا والآخرة وخير القرون القرن الذين شاهدوه مؤمنين به وبما يقول، إذ كانوا أعرف الناس بالفرق بين الحق الذي جاء به وبين ما يخالفه، وأعظم محبة لما جاء به وبغضاً لما خالفه، وأعظم جهاداً عليه فكانوا أفضل ممن بعدهم في العلم والدين والجهاد أكمل علماً بالحق والباطل وأعظم محبة للحق وبغضاً للباطل وأصبر على متابعة الحق واحتمال الأذي فيه وموالاة أهله ومعاداة أعدائه واتصل بهم ذلك إلى القرن الثاني والثالث فظهر ما بعث به من الهدى ودين الحق على كل دين في مشارق الأرض ومغاربها كما قال ﷺ: «زُوِيَتْ لي الأرضُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وسَيَبْلُغُ مُلْكُ أمتي ما زُوي لي منها».

وكان لا بد أن يظهر في أمته ما سبق به القدر واقتضته نشأة البشر من نوع من التفرق والإختلاف كما كان فيما غبر، لكن كانت أمته خير الأمم، فكان الخير فيهم أكثر منه في غيرهم، والشر فيهم أقل منه في غيرهم، كما يعرف ذلك من تأمل حالهم وحال بني إسرائيل قبلهم، وبنو إسرائيل هم الذين قال الله فيهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ والحُكْمَ وَالنُبوّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهمُ عَلى العالمينَ وآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إلاَّ مِنْ بَعدِ مَا جَاءَهُمْ العِلمُ بغْياً بَينهم إنَّ رَبّكَ يَقْضي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فيما كَانُوا فيهِ يخْتَلِفُون ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلى شَريعَةٍ مِنَ الأمْرِ فَاتبعهَا وَلاَ تَتّبع أهواءَ الّذين لاَ يَعْلَمُونَ إنّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ الله شَيئاً وَإنَّ الظَالِمينَ بَعْضَهُمْ أوْلِياءُ بَعضٍ وَالله وَلِيُّ المُتّقِينَ﴾[2] وقال لهم موسى: ﴿يَا قَوم أذكُروا نِعمةَ الله عَلَيْكُمْ إذْ جَعَلَ فِيكُم أنبيآءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْت أَحَداً مِنَ العَالمِينَ﴾[3]. فإذا كان بنو إسرائيل الذين فضلهم على العالمين في تلك الأزمان، وكانت هذه الأمة خيراً منهم كانوا خيراً من غيرهم بطريق الأولى، فكان مما خصهم الله به أنه لا يعذبهم بعذاب عام لا من السماء ولا بأيدي الخلق، فلا يهلكهم بسنة عامة، ولا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم كما كان يسلط على بني إسرائيل عدواً يجتاحهم حتى لا يبقى لهم دين قائم منصور، ومن لا يقبل منهم مقهوراً تحت حكم غيرهم.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥.
(٢) سورة الجاثية: الآيات ١٥ ـ ١٩.
(٣) سورة المائدة: الآية ٢٢.

بـل لا تزال في هـذه الأمة طـائفة ظـاهرة على الحق إلى يـوم القيامـة ولا يجتمعـون على ضلالة، فلا تزال فيهم أمة فيهم أمة يدعون إلى الخير، ويأمـرون بالمعـروف وينهون عن المنكـر وأولئك هم المفلحون.

وقد ثبت في الحديث الصحيـح عن النبـي ﷺ أنه قال: «سَألتُ رَبي ثلاثاً فأعـطاني إثنَتَين وَمَنَعني عن وَاحدة سَألتُ رَبِي أنْ لا يُسَلِّطَ عَليهم عَدواً من غَيرِهم فيجتَاحَهم فَأعـطَانيهَا، وسـألتُه أن لا يهلكهم بِسنّةٍ عَامّةٍ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسَهم بينَهم فَمَنَعنِيهَا».

وهذا البأس نوعان:

أحـدهما: الفتن التي تجـري عليهم والفتنة تـرد على القلوب فلا تعـرف الحق ولا تقصده فيؤذي بعضهم بعضاً بالأقوال والأعمال.

والثاني: أن يعتدي أهل الباطـل منهم على أهل الحق منهم فيكـون ذلك محنـة في حقهم يكفر الله بها سيئاتهم ويرفـع بالصبر عليها درجاتهم، ويصبرهم وتقواهم لا يضرهم كيد الـظالمين لهم، بل تكون العاقبة للتقـوى، ويكونـون من أولياء الله المتقين وحـزب الله المفلحين وجند الله الغالبين إذا كانوا من أهل الصبر واليقين، فإنه من يتق ويصبر فـإن الله لا يضيـع أجر المحسنين، والمعتدي منهم إما أن يتوب الله عليه كمـا تاب على أخـوة يوسف بعـد عدوانهم عليـه وآثاره الله عليهم بصبره وتقواه كما قال لما قالوا ﴿أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُـوسُفُ قَالَ أَنَـا يُوسفُ وَهَـذا أخي قَدْ مَنَّ الله عَلَيْنَا أنه من يَتّقِ وَيصْبِر فَإنَّ الله لاَ يُضيـعُ أَجْـرَ المُحسنينَ قَالُـوا تَالله لَقَـد آثَرَكَ الله عَلَيْنَـا وَإنْ كُنّا لخَاطِئينَ قَالَ لاَ تَثْرِيب عَلَيْكُم اليومَ يَغْفِرُ الله لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمين﴾[1].

وكما فعل سبحانه بقـادة الأحزاب الـذين كانـوا عدواً لله وللمؤمنين وقـال فيهم ﴿لاَ تَتّخِذُوا عَدوي وَعدُوكُم أوليـاء﴾[2] ثم قال: ﴿عَسَى الله أنْ يَجْعَـلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذِينَ عَـادَيتُم مِنْهُمْ مودة وَالله قَديرٌ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3] وفي هذا ما دل على أن الشخص قد يكـون عدواً لله، ثم يصيـر ولياً لله مواليا لله ورسوله والمؤمنين، فهو سبحانه يتوب على من تاب، ومن لم يتب فإلى الله إيابـه وعليه حسابه، وعلى المؤمنين أن يفعلوا معه ومع غيره ما أمر الله بـه ورسولـه من قصد نصيحتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، كما أمر الله ورسوله، لا اتبـاعاً للظن ومـا تهوى الأنفس حتى يكـون من خير أمـة أخرجت للنـاس يأمـرون بـالمعـروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، وهؤلاء يعلمون الحق ويقصدونـه ويرحمـون الخلق، وهم أهل

---

(١) سورة يوسف: الآيات ٩٠ ـ ٩٢.

(٢) سورة الممتحنة: الآية ١.

(٣) سورة الممتحنة: الآية ٧.

صدق وعدل، أعمالهم خالصة لله صواب موافقة لأمر الله كما قال تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾[1]. قال ابن عياض وغيره: أخلصه وأصوبه، والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة، وهو كما قالوا فإن هذين الأصلين هما دين الإسلام الذي ارتضاه الله كما قال: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾[2]. فالذي أسلم وجهه لله هو الذي يخلص نيته لله ويبتغي بعلمه وجه الله، والمحسن هو الذي يحسن عمله فيعمل الحسنات، والحسنات هي العمل الصالح، والعمل الصالح هو ما أمر الله به ورسوله من واجب ومستحب، فما ليس من هذا ولا هذا ليس من الحسنات والعمل الصالح فلا يكون فاعله محسناً.

وكذلك قال لمن قال: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى قال تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[3] وقد قال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[4].

والإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين ومن اتبعهم من الأمم، كما أخبر الله بنحو ذلك في غير موضع من كتابه، فأخبر عن نوح وإبراهيم وإسرائيل عليهم السلام أنهم كانوا مسلمين، وكذلك عن اتباع موسى وعيسى عليهما السلام وغيرهم. والإسلام هو أن يستسلم لله لا لغيره، فيعبد الله ولا يشرك به شيئاً، ويتوكل عليه وحده ويرجوه ويخافه، وحده ويحب الله المحبة التامة لا يحب مخلوقاً كحبه لله، بل يحب لله ويبغض لله ويوالي لله ويعادي لله، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلماً، ومن عبد مع الله غيره لم يكن مسلماً، وإنما تكون عبادته بطاعته، وهو طاعة رسله، من يطع الرسول فقد أطاع الله، فكل رسول بعث بشريعة فالعمل بها في وقتها هو دين الإسلام، وأما ما بدل منها فليس من دين الإسلام، وإذا نسخ منها ما نسخ لم يبق من دين الإسلام كاستقبال بيت المقدس في أول الهجرة بضعة عشر شهراً، ثم الأمر باستقبال الكعبة وكلاهما في وقته دين الإسلام، فبعد النسخ لم يبق من دين الإسلام إلا أن يولي المصلي وجهه شطر المسجد الحرام.

فمن قصد أن يصلي إلى غير تلك الجهة لم يكن على دين الإسلام لأنه يريد أن يعبد الله

---

(١) سورة هود: الآية ٧.
(٢) سورة النساء: الآية ١٢٥.
(٣) سورة البقرة: الآية ١١٢.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٨٥.